رواية

الأهوج



د. إيهاب سلام

www.kotobarabia.com

الأهـــوج

رواية

د. إيهاب سلام

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

- المؤلفات :
- الكتب السياسية والاقتصادية :

- الرقابة السياسية على أعمال السلطة التنفيذية ، مكتبة عالم الكتب بالقاهرة ١٩٨٣ .
- العمالة وفرص العمل ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ١٩٩٨ .
- القرارات الاقتصادية بين الفرد والمجتمع ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ٢٠٠٠ .
- الانتخابات ، موسوعة الشباب السياسية ، ٢٠٠١ .

* الدول بين التخلف والتقدم ، كتاب الأهرام الاقتصادي ، ٢٠٠٢

- الروايات والمجموعات القصصية
- اللقمة في يد النساء ١٩٧٧
- بذور ١٩٨١
- وقائع غير مرئية تحت الشمس ١٩٨٧
- لآلئ الزمن الخالي ١٩٧٨
- خذ الحذر ١٩٨٨
- غالباً ما يتفتح الزهر ١٩٨٨
- السفر إلى زمن ميت ١٩٨٩
- بعد فوران الحمم ١٩٨٩
- الدكاكين الصغيرة ١٩٩٠

- لو أعلنت الحقيقة ١٩٩١
- نفحات من العطر المعتق ١٩٩١
- العودة إلى الحياة ١٩٩١
- مازلت أتألم ١٩٩٢
- انقلاب في الثلاثين ١٩٩٣
- الجري وراء الأهواء ١٩٩٣
- الميراث ١٩٩٤
- سلام الذئاب والحملان ١٩٩٤
- المصيدة الكبرى ١٩٩٥
- شقة الهوى والهوان ١٩٩٦ (صدرت بتمويل من اتحاد كتاب مصر)
- الحب بالإكراه ١٩٩٩صدرت في سوريا
- ليالي الزعبلاوي ١٩٩٩ صدرت في سوريا
- ملكة الأرخبيل ١٩٩٩صدرت في سوريا
- دوامة بلا حدود١٩٩٩ في سوريا و٢٠٠٠ في مصر
- الهجرة من المستنقع ١٩٩٩
- مهاجر من إسرائيل ٢٠٠٠
- الهارب من النار ٢٠٠٢
- الخداع يعود بثوب جديد ٢٠٠٢
- فندق الشفاء الأزرق٢٠٠٢
- الميت الحي ٢٠٠٢
- أين الكموني ٢٠٠٢
- المتعة عند الغروب ٢٠٠٢

- الأخوان نار ونور ٢٠٠٢
- حرب الصقور ٢٠٠٤
- لغة بلا كلمات ٢٠٠٤
- بين المهمشين ٢٠٠٤
- الخطيئة والندم ٢٠٠٤
- دار النشر الإلكتروني :
- الطريق إلى الإصلاح السياسي ٢٠٠٥
- توصيات اقتصادية ٢٠٠٥
- عبور الخط الأحمر ٢٠٠٥
- ذكريات فضيلة ودليلة ٢٠٠٥
- اعترافات الورد والشوك ٢٠٠٥
- الأهوج ٢٠٠٥

المتقلب

يتضمن هذا الكتاب رواية لكنها قد وضعت فـي صـورة قصص قصيرة . يبدو للقارئ أنها منفصلة للوهلة الأولـي ، غير أن بالتعمق يتضح أنها متصلة متشابكة . إنهـا روايـة أشخاص متقلبو الطباع . لا تعرف ما إذا كان الواحد مـنهم مجنوناً أو عاقلاً عصبياً أم هادئاً . ذكيـاً أم غبيـاً . يربـي أولاده على الرحمة أم على القسوة . ينفق عليهم أم يغل يده . وهكذا هو متقلب من الصغر ولا يزال متقلباً حتى الكبر .إنه غاضب في معظم الأحيان . عاقل لدرجة غريبة . ذكـي . ولكنه مندفع في الغضب . أهوج في التصرفات . طائش في بعض الأحيان .

(١)

المدلل

أسيوط ؟ .. كيف أهاجر إليها أنا الذي لا أحمل القشة في بيتي ولا أتحمل المشقة ، وأخواتي الخمسة كن يخدمنني ؟ .. هكذا راح يحدث نفسه . يعرف قدرها . إنه لا يرتاح دون أن تخدمه الأخريات . دللته أمه لأنه الولد الوحيد وآخر العنقود وأفسدته . جعلته لا يقاسي التعب أو الإرهاق . غيـر أنـه يحس الآن بأنياب الإرهاق فـي السـفر وأسـنان الغربـة وضروس الوحدة تحطم عظامه وتسحقها . لقد مضت ثماني عشرة سنة وهو في كنف أمه في القاهرة . لم تغرب شمسها

عنه إلا في أوقات التحصيل والدرس . وقد أزداد التصاقاً بها يوم رحل أبوه رحلة اللاعودة . يرجع إليها بعد انتهاء وقـت الدراسة ، ولا يبرح البيت أبداً إلا نادراً . ويبقى متعلقاً بهـا يدور في فلكها كما تدور الأرض في فلك الشمس . أو كمـا تتعلق الشجرة بالأرض الخصبة مدى الحياة تمد فيها جذورها وترسخ ساقها في أرضها . لم يبرح القاهرة يومـاً إلا فـي صحبتها . كثيراً ما كانت تأخذه معها وهي تسافر إلى طنطا في زيارة أخته .. تلك التي يأتي ترتيبها في الخلف الثانيـة . أو في زيارة أخته الكبرى تلك التي لا يبعد بيتها عن بيتهم . أو أخته الثالثة التي لا تبرح حي شبرا إلا لمامـاً .. أثقلهـا وزنها فجعلها سلحفاة تتحرك ببطء . يحس وهو يسير بجانب أمه أنها لا زالت تحمله كما كانت تحمله صغيراً . ولم يشعر بالوحدة أبداً .لأنه لم يكن قط بعيداً عنها . تحكي له وتقـص وتعظ . أشبه هو بالعصفور دائماً في عش أمه العصفورة .

أما الآن فهو ينتقل إلى حياة جديدة . لعـل التـدليل فـي الصغر أفسده في الكبر . وجعل قدرته على التحصيل ضعيفة ، رغم أنه يحس أنه يحمل في رأسه جوهرة . ذلك ما جعله يحصل على الدبلوم الثانوي في الدراسات التجارية . وبعـد لأي وجد هذه الوظيفة في أسيوط في أحد البنوك . لقد تقـدم على أكثر من مائتي ممتحن مما أعاد الثقة إلى نفسه . وقرر بينه وبين نفسه أن يدرس للمراحل العليا لو لاحت الفرصة . غير أنه بوغت أن الوظيفة في أرض بعيدة وأن لم يتحـرك إليها ، سوف يفقدها . ستضيع الفرصة إن لم يقتنصها .. تلك

التي جاءت إليه خاضعة راكعة دون وساطة أحد . ستتلاشى مثلما يتلاشى الغزال أمام الصياد بطئ الحركة .

إن كل ما يجب أن يفعله الآن هو أن يقضي على مشاعر الغربة الكئيبة . وأحاسيس الوحدة القاتلة . الأولى تخنق كأنها سفاح يترصد الإنسان بلا هوادة . والثانية تقطع أسباب الحياة بالتدريج دون أن يشعر الإنسان .

ووضع خطة للقضاء على الغربة والوحدة على أساس أنه لن يعود إلى القاهرة إلا في المواسم . وسوف يصاحب أكبر عدد من الزملاء في البنك . وسوف يرتبط بهـم مـا بـين المغرب والعشاء . وسوف يقيم العلاقات بينهم بما ينسيه أنه وحيد وغريب . سوف يلتحق بأحد النوادي حتى يبدد آفـات الوحدة في الفضاء العريض .

لكن فجأة ظهر انفعال جديد ينافس الانفعـالات السـلبية الأخرى ، ذلك هو ما يتعلق بحياته اليوميـة . مـن كـنس لحجرته وغسل لثيابه وإعداد لطعامه . ولم يكن يعرف فـي هذه الأمور شيئاً . كانت أخواته يقمن بكل شئ . لـم يكـن يدرك كيف يضع الصابون في الحوض ويدعك الثياب فيه ، أو حتى يعد وجبة طعام ولا سلق بيضة أو بيضتين . ذلـك هو مصير المدلل .. هكذا راح يكلم نفسه .. العناء . ولا شئ غير العناء . إنه مارد يلعب بي . يقذفني من شعور إلى آخر . ويضحك على سذاجتي . ولا أتمكن من مقاومته ، لأنـي لا أعرف شيئاً .

حينما جاء يوم الخميس الأول على إقامته في أسـيوط ، حمل كل ملابسه القذرة والنظيفة . وركب القطار عائداً إلـى القاهرة . والدموع تتجمع في عينيه . تتكاثر وتتكاثف غيـر أنها لا تنهمر . كأن جفون عينيه من الصلب الذي لا يسـمح بنفاذ دمعة واحدة . إنه يفر من الوظيفة . يهرب من الغربة . يأبق من الوحدة . هو عبد آبق من القسـوة .. لينهـل مـن الأحضان الدافئة .. يبكي على صدرها .. وينعم برقتها .

تأخذه أمه في أحضانها . تتسـابق أختـاه الباقيتـان دون زواج في إعداد مائدة شهية له . ينام كما لو لم ينم من قبل . يستيقظ ليجد مائدة أخرى معدة لطعام العشاء . ليس فيها مـا ينفرني منها . تسأله أمه : وسكنك الجديد ؟ .. يقول : حجرة مع مجموعة من الأصدقاء أثثتها وأصـبحت الآن لا تبعـث على الضيق . تسـأله : وأصـدقاؤك ؟ .. يقـول : خيـر الأصدقاء . وكأن عينيها تسألان : إذاً ماذا جاء بـك ؟ .. تقول عيناه : لقد افتقدتكن فلم استطع البقاء . تقول عينا الأم : أليست مصاريف السفر عبء يضاف إلى أعبائك . يجيـب بعينيه : آه لو تعرفين أنني لن أعود ؟! ..

يجلس في حجرته منفرداً يتأمل : أستترك العمل وتـركن إلى الراحة ؟ .. أجئت زائراً أم جئت هاربـاً ؟ ... التـدليل ضيع عليك التفوق الدراسي وهاهو يضـيع عليـك مصـدر الرزق الوحيد . أتظن أن المعاش الضئيل الذي تتقاضاه أمك وأختاك كاف لأن يسد رمقكم . لقد تعـذبت طـويلاً حتـى حصلت على الوظيفة .. كيف تفرط فيها بسبب عادات سمجة

تعودت عليها ؟ ..ما في غسل ملابسـك وإعـداد طعامـك وترتيب فرشتك ؟ .. أليس في ذلك رياضة لـك لـم تكـن تمارسها ؟ .. أنفض عنك غبار التدليل وأمض إلى عملـك . عود نفسك من الآن فصاعداً على حياة جديدة . لا تدليل فيها ولا نعومة .. ولا راحة .

قبل أن تغرب شمس يوم الجمعة . رتب حقيبته وكن قـد غسلن له ملابسه المتسخة . لتكن آخر أيام التدليل . وحملـه القطار إلى أسيوط من جديد إليها .. لا يمكن أن يفقد الوظيفة في سبيل ساعات زائلة من التدليل الجميل .

(٢)

الثرثارة

حينما يغادر زوجها البيت في الصـباح إلـى عملـه .. تتقمص شخصية الساحرة وتواجه مرآتها .. تتأمل التجاعيـد وتشدها بأصابعها أو تفردها . وكثيراً ما كانت تقـارن بـين الماضي والحاضر .. تتذكر ذلك العجوز الذي انزاح أخيـراً من حياتها وكان جاثماً على قلبها زهاء فترة من الزمن. لـم يتركها إلا ودب الشيب في شعرها . غير أن الصبغة السوداء تقاتل الشعر الأبيض بلا هوادة . وتجعل حياته سواداً . مـا أبهج سواد الشعر ! .. أما الآن فقد دخلت دنيا ذلك الشـاب منذ فترة قصيرة . وأنجبت له بنتاً وولداً .. قمرين . سـوف تتعهدهما بالرعاية لو كانت أنجبتهما من ذلك الشيخ لكانـت سوق زواجها قد بارت . ولما تقدم إليها أحد . مـن يتـزوج أرملة لها طفلان ؟ .. حقاً ذلك الشاب - زوجها - يصغرها

بسنوات لا داعي لذكرها ، فإن الذكرى تؤلمها وتنغص عليها حياتها .. تحاول آن تنساها . لكن وجهه المشرق الخالي من التجاعيد يذكرها بشبابها . ويعطيها كثيراً من مـاء الشـباب يروي جسدها .

كان صوتها لا يسمع أثناء زيجتها الأولى . كان رجلهـا شيخا مستبداً يغار عليها ويخطط خطواتها . أما الآن فصوتها آمر ناه . الشاب مطيع لا يخاف لها أمراً أو نهياً . لم تكـن أمها تصدق أنها ستدخل دنيا الزواج مرة أخـرى .. وبهـذه السهولة .. وفي تلك المدة الوجيزة . وكانت أخواتها الـثلاث الباقيات على قيد العنوسة يناقشن الأولويات في الزواج فيمـا بينهن . تتساءلن فيما إذا تقدم واحد من أهل الكرم والجـود وطلب يد واحدة منهن . أيجب في هذه الحالـة أن تتـزوج الكبرى منهن أم هذه التي مات زوجها وهي تكبرهن جميعـاً وقد أخذت حظها من الزواج . وكن يعـرفن أنهـا الكلمـة المسموعة في العائلة وتقدس العرف الذي جرى أن تتـزوج الكبرى قبل الصغرى . بـل سـوف تتجاهـل أن الكبـرى اقتنصت فرصتها ويجب أن تخرج من السباق . وكبتن الإحن في قلوبهن وانتظرن . واستسلمن للأمر الواقع حينمـا تقـدم الشاب يطلبها . ولم تتمكن الكبرى من الثلاث أن تـدعي أن هذا حقها . وطُبقت القاعدة العرفية وتزوجت أكبـرهن سـناً رغم سبق زواجها .

تداعب طفلتها وطفلها ، وتحنو عليهما . وتطبخ . وتنتظر أن يعود . تتبرم من الخروج . تدعي أن مصاريف الفسـح

ثقل يجب ألا يتحملاه . وتجالسه تتكلم وهو ينصـت لهـا . يحاول أن يهرب من حديثها الذي لا يتوقف ولا يأخذ هدنـة بأن يغسل المواعين ، لكنها تلاحقه في المطـبخ . وتسـتمر تطق كلماتها دون فترة راحة . لا تحاول أن تشد منه طبقـاً لتعاونه في غسله ، لكنها قد تأخذ منه واحداً أو أكثر لتجففه . كانت في البداية قد ظهرت بمظهر الوديعة التـي لا تـتكلم فغرق في الإعجاب بها . أما الآن فإن داء الثرثرة أمر يجب الهروب منه ، ولكنه لا يستطيع . لا بد أن أجد لي مخرجـاً .. لا يمكن أن أحطم أسرتي في سبيل هذا الـداء الـذي لا علاج له . وقرر بينه وبين نفسه أن يسكت ويستمع . غيـر أنها لم تهتم . كانت لا تطالبه أن يشاركها الحديث . يكفي أن تتكلم . تنتقل من الجغرافيا إلى التاريخ ومن الأصـول إلـى الفروع ومن الدين إلى الدنيا ومن الآخرة حيـث العـذاب أو الجنة إلى الواقع حيث العذاب ولا شئ غير العذاب ما لم تكن مطمئن القلب تقي النفس . وقد اكتشف بمرور الزمن أن هذا المرض ورثته عن أمها . ولـو أن أمهـا تتحـدث بتـأن وبصوت منخفض . وقد ورثته بناتها منها أيضـاً . إنـه داء ملكهن جميعاً لا دواء له .

وفي يوم جاء بعد العصر . سألته :

- تأخرت ؟ ..

قال بهدوء :

- أبداً .. المواصلات زحمة للغاية .

قالت بصوتها العالي وبالسرعة التي يعهدها فيها :

- حقاً .. أين ذلك من أيام كان الإنسان يركب السـيارة العمومية فلا يجد فيها إلا أناساً قلائل .. بل كانـت سـيارة الأجرة تقف لك ويقول لك السائق تفضل .. ويلح عليك إذا لم تركب .

قد تكون أحاديثها غير مملة ، لكنها مكررة . والتكرار ابن الملل . وإذا كبر قد يتخذه أخاً ويصبح توأماً له .

ألقي القنبلة في وجهها حينما قال :

- سوف يسند لي أعمال إضافية من الساعة الخامسة إلى التاسعة بعد العصر .

وظن أنها سوف تمتعض غير أنها استقبلت الخبـر دون تبرم . أخفت ما اجتاحها من عذاب فمن مـن الآن سـوف يسليها بالاستماع إليها . سوف تعاني من الوحدة والفـراغ . وسرعان ما امتزج بالعذاب الفرح فإن أجوراً إضافية سوف تُغدق على العائلة فيضاً من السعادة . تستطيع أن تشـتري بها ملابس جديدة للطفلين ، فتشرق البسمة على وجهيهما .. تستطيع أن تنتقل بسيارة أجرة بدلاً من المواصلات العامـة القاتلة .. تستطيع .. تستطيع .. فتجدد حياتها .

دخل لينال قسطاً من الراحة ، وأغمض عينيـه .. وراح في السبات متقطع الأوصال ، وهي تثرثر . وحينما اسـتيقظ في الرابعة والنصف كان يستعد للخروج . وكان قـد كـل لسانها فنامت هي الأخرى . وكانت قد تمكنت مـن إدخـال الكرى في عيون الطفلين .

كان عمله كمفتش أغذية يقتضيه أن يزور بعض المحلات ليلاً لكن ذلك التفتيش الليلي لا يحدث طوال الأسـبوع . ولا يمتد أكثر من ساعتين . وأخبرها وهـو يخـرج أن عملـه الإضافي يقتضيه أن يعمل طوال الأسبوع ولمدة أربع ساعات يومياً .

شعر حقاً بالملل وهو يجلس في المقهى هـذه السـاعات الطويلة لكن ملل الصمت خير من ملل الثرثرة .

(٢)
الممثل

أختها الكبرى تزوجت من رجل مسن . وغرقت وأختاها الأخريان في بحر العنوسة . ومات الرجل وتزوجت الكبرى للمرة الثانية من شاب في مقتبل العمر . وظنت أن القطـار فاتها إلى الأبد . لكن لاح شراع الأمل في ابن حلال تقـدم إليها .رجل في مقتبل الشباب . لم يكن يملـك مثلهـا ذلـك البياض التركي الناصع . ولا العينين الخضراوين . ولا ذلك الجسد المكتنز . كان أسمر اللون واسمراره غامق . طويـل القامة . فيه ملامح أسوانية ولو أنه لم يولد في أسوان . كان يعمل أخصائي نظارات . أتخذ له ركناً صغيراً في صـيدلية العتبة .وكانت تدر عليه مالاً غير وفير ، لكنه لم يفكر فـي الإقلاع عن هذه المهنة . ونقب في الأماكن الأخـرى عـن عمل جديد ، فوجد أمامه أرض التمثيل السينمائي يمرح فيها

. واصبح مطلوباً في أكثر الأفلام لأنه يقوم بتمثيل دور هـام في كل فيلم ، هو دور الطباخ أو مدير الخدم لدى علية القوم .

ولما استقر بهما المقام أغرقها في العز ، فصارت تأكـل بنهم حتى أصبحت كرة منفوخة باللحم . أخذت تتضخم مـن الوفرة التي أتخمت بها . وقبل أن تستفحل بدانتها أنجبت لـه الولد الوحيد . وبمرور الوقت تغيرت ملامحهـا وانتفخـت أوداجها وتورم وجهها وامتلأت باللحم والشـحم . أصـبحت تعاني من أمراض السمنة وطفقت تستعمل الأدوية بكثـرة ، رغبة في معالجة أمراض التضخم .. وبغية القضـاء علـى السمنة وملحقاتها من الأمراض .. لكن هيهات . ووجدت منه إعراضاً كأنما يستنكر أنها التي وضع يده في يد وليها أثنـاء عقد القران .

أدركت بفطنتها المتقدة أن زوجها لاف بأخرى . يبدو أنها زهد فيها لبدانتها .. تلك التي عكرت عليه صفوه ، فـأرتبط بأخرى . وسلطت عليه أحد المعارف وتتبعه حتى تأكد أنـه متزوج من كومبارس سينمائية . تظهر في أدوار ناطقة فـي لقطة أو لقطتين . أحياناً تبدو خادمة فـي روايـة وأحيانـاً أخري أماً على شفا الموت أو أختاً عانساً تمثل ثقـلاً علـى أخيها المأزوم . نقل الرجل الخبر إليها ، وانصـرف وهـي تحاول أن تتماسك أمامه . غير أنها انهارت مغشـياً عليهـا حينما انصرف الرجل . لما تنبهت بدأت تفكر . غاصت في

لجة من الأفكار وكادت تغرق فيها لولا أن انتشلت نفسها قبل أن تختنق .

وفي المساء حينما عاد . واجهته قائلة :

- طلق هذه المرأة .

سألها مستغرباً :

- أي امرأة .

قالت بقوة :

- هذه الكومبارس .. التي تسكن معها في حي العباسية .

- ماذا تقولين ؟

- أنا أعرف كل شئ يا أسمر مصر .

لم يستطع أن يقاوم .. كانت شخصيتها آثرة . وفيها قسوة وشدة . ولسانها زالف لا يراعي حرمـة ولا تقاليـد . آثـر السلامة . وفي الصمت وجد الأمان .

ومر يوم ، وجاء اليوم الآخر وسألته :

- أين ورقة الطلاق ؟ ..

قال ضاحكاً :

- وأين ورقة الزواج ؟ ..

أنكر بشدة أنه متزوج من امرأة . واضطرت المـرأة أن تستعين بالرجل الذي أوفدته في مهمـة التجسـس لتعـرف عنوانها . ورغم ثقل خطواتها ، تحركت إلى بيت المغضوب عليها لتواجهها . كانت تعرف أنها قد تعمـل فـي الصـباح الباكر أو في المساء ، لذلك حطت عليهـا عنـد الظهيـرة . ودقت الباب ففتحت لها . تأملتها طويلاً . لم تكن تمتلك شيئاً

من الجمال . ربما تملك روحاً مرحة . تبدو ضامرة العـود مشرقة الوجه . سمراء . هضيمة الصدر .

قالت ، وهى تعض بأنيابها : جئت أقول لك حلـي عـن سماء زوجي ! ..

قالت المرأة باستنكار : من يكون زوجك ؟ ..

قالت بقسوة : ذلك الأسمر الذي تعشقينه .

امتدت يدها إليها لتعاركها . وحينما تأجج الشجار ، كـان زوجها يفتح الباب سعيداً . يحمل في يده لفافة . جـاء إليهـا ليأخذها إلى الأستديو . يمثلان دوراً مشتركاً فـي روايـة .. هي خادم .. وهو كبير الخدم . ورأى أمامه زوجته قد رقدت بثقلها على العصفور الضعيف . مكسور الجناح . المرأة غير قادرة على الإفلات . تكاد تختنق . ووجهها متورم . وعيناها جاحظتان .

حاول أن يشدها من فوقها بعد لأي . نهضت وهي تنفض يدها منها . وتقول وقد رأته : أين ورقة الـزواج ؟ .. أيـن ورقة الطلاق ؟ .. تستطيع فقط التلاعب بالكلمـات . تفعـل الأفعال وتنفيها بالكلمات . ممثل على الشاشة .. وممثل فـي الحياة .

غير أنه لم يرد عليها . تعود أن في الصمت الأمان .

تقدم من اللفافة التي كان قد وضعها على مائدة صـغيرة قريبة ، حينما شاهدهما يتعاركان . وكانت المرأة البدينة تنظم هندامها . والمرأة الهزيلة تسترد أنفاسها . قال لهمـا دون أن تختلج في وجهه خلجة ، وهو يفض اللفافة :

- هيا نأكل معاً .. هذا الكباب .

تنظر إليه المرأة البدينة ، وتهـم بالانصـراف ، وهـي تتعجب لبروده وتقول : يا لك من "مشخصاتي" .

(٤)

العانس

تحاول ، وهي تسير وحدها ، أن تفسر أسـباب رفضـها الزواج حتى الآن ، وقد دنت من الثلاثين . وتنتهـي فـي خاتمة الجدل المحتدم بينها وبين نفسها إلى أن ذلـك الأمـر طبيعة فيها .. العزوف عن دنيا الرجل . قد يكون الوضـع بسبب فقر والدها المدقع ولا ذنب له فيه . تخشى أن تتزوج رجلاً مثقوب الجيب فتعاني مثلما عانت أمها . ولـن يتقـدم بطبيعة الحال رجل كثير الخيرات إلى بنت لا طين وراءهـا أو عقار أو حتى شهادة . وقد يكون سبب نفورهـا طبيعـة أخيها العصبية ، حتى جعلتها تعتقد أن كل رجل بركان فـي صورة إنسان . ويمكنها أن تختار رجلاً يشد على أعصـابه بقوة لكن كيف تتأكد من ذلك ؟ .. لذلك ترفض كل المتقدمين إليها . وتدور حياتها في نظام لا يتغير . منه أن تغادر البيت في أول كل شهر . تذهب لصرف معاش المرحـوم والـدها نيابة عن أمها وأختها وأصالة عن نفسها . وتمضى بعد ذلك إلى ابن خالتها لتتسلم منه إعانة شهرية لوالدتها .

كانت عزة نفسها وكرامتها زائدتين عن الحد المعقول لكن في هذه اللحظة تتغاضى عنهما . لا يمكن أن تعارض أمهـا وتستنكف أن تمد يدها لابن خالتها . وكان أخوها الوحيد آخر

عنقود الأسرة قد أنتقل إلى أرض بعيدة يسعى لرزقه هناك . أرسل عدداً من الرسالات يشرح فيها أن حاله لا يسر . وإن كان يرفق حوالة هزيلة الجرم ، فكانت تلك الإعانة تسد بنداً جوهرياً في مصاريف الحياة .

اخترقت شارع الموسكي سيراً على الأقدام . تعرف أنهـا تسير إلى رجل رفضته . لقد طلبها ابن خالتها من أمها سراً . وهمست أمها في أذنها بالسر . فامتعضت عيناها وانقلبـت شفتاها ، يقشعر بدنها كلما جاءت سيرة الزواج . وعرفـت الأم أن الفتاة لا تزال ترفض .. ورغم ذلك تذهب وتمد يدها لتأخذ الإعانة .. ليست لها إنما لأمها . لكن بأي وجه يا حلوة تواجهين الرجل ؟ .. مسألة الزواج قسمة ونصيب .. وأنـا هواي لم يتقابل مع هواه . ريحه ثقيلة وأنا أحـب النسـمة . يجب عليه أن يقتنع بذلك . أنت لا تريدين الزواج منه لأنـك تخشين على مستقبلك معه . حينما يـدب الشـجار بينكمـا يعايرك بأنه كان ينفق على أمك .

أمك لم تناقشك لأنها تعرف أنـك صـلبة الـرأي . وإذا قررت أمراً فلا تحيدين عنه . ولكن كيف ترفضـين رجـلاً ثرياً له عدد لا بأس به من الدكاكين . يتاجر في الخردوات . وله عدد لا يحصى من البيوت . ويؤجر أيضاً حوانيت فيهـا .سوف يطرد من حياتك شبح الفقر ، ذلك الذي عشت معـه مع أبيك الراحل ولا زلت تعيشين معه . لا أدري . ربمـا لا استسيغه . لا يعجبني حديثه . ولو أنه أبيض مثلي . وعينـاه خضراوان مثلي . وقصير القامة مثلي . قد تكونين تحلمـين

برجل طويل القامة يعوضك ما نقص منك . أسـمر الوجـه يمتزج اسمراره مع بياضك فيشكلان صـوراً أخـرى . لا أدري . لكن أريد الآن أن أكون نفسي ، وبعد ذلك أفكر فـي مسألة الزواج . لكن كيف ستتمكنين من هـذا التكـوين ؟ .. وأنت راقدة خاملة في بيت أمك لا تعملين . يوماً ما سـوف انطلق وأكون صاحبة أعمال . لكن ما هي تلك الأعمال ؟ .. ذلك ما سوف يختمر بعد في ذهني . عليك أن تقبليـه وإلا فاتك القطار . على العموم إذا تقدم ثانية فسوف أقبل حتى لو لمح فسوف أقبل .

انبسطي .

تدخل إلى حارة فرشها الظـل . غطاهـا ظـل البيـوت المتجاورة . وتمرق إلى الدكان المعهود . يستقبلها ببشاشة . هي تعرف أن أمها أخبرته أنها رفضته . لكنه لا يعدل عـن استقبالها بابتسامة . لا يتصنعها إنما هي طبيعة فيه . رقيـق القلب . تجلس كأنها خشب . لا تبدو على ملامحها علامـة خجل . تنم عن اضطراب داخلها .. كان مـن الواجـب أن ترسل أحداً غيري .. ومن غيرك هناك . أختك النائمة أبداً أم واحد من الجيران . لكن هل في هذه المرة سوف يعتذر عن الإعانة . أو سوف يخفضها نكاية فيها وتأديباً لأنها رفضته . إنها تذوب خجلاً لكنها تتحامل وتتجمل بالصـبر . وتخفـي آلامها تحت قناع خشبي بارد . لو عرض علي الآن مباشرة أن يعقد قرانه على فلن أتردد .. لكن لا يجوز أن المـح لـه

أنني قبلت . بعد ذلك سوف تخرس كل الألسنة ولـن تلـوك سيرة العانس . أو تسأل عن أسباب إحجامي عن الزواج ..

يسأل وهي تجيب باختصار :

- كيف حال خالتي ؟ ..
- لا زالت كما هي .
- - أزداد عليها المرض .
- نعم .. يبدو أن المفاصل في الكبر تؤلم .
- أعتقد أن ذلك من قلة الحركة .
- نعم . هو كذلك .
- ماذا تودين أن تشربي .
- لا بأس من زجاجة مثلجة .
- حالاً ستكون أمامك .

ينادي أحد العمال في الدكان الزاخر بأشياء تعرفها جيداً . سبح . قواعد لقراءة القرآن . زخارف يمكن أن تُـزين بهـا الحوائط . نتائج حائط . ونتائج مكتب . في دقـائق يصـل العامل وينحني مقدماً لها الزجاجة . تشربها بسرعة بينما يعد ابن خالتها مبلغاً من المال ، وهو جالس خلـف الخزينـة . يدسه في يدها . حينما تنوي الانصراف . ويبادرها قائلاً :

- سوف أحضر إلى البيت لأدعوكم إلى زفافي .
- هل ستتزوج ؟ ..
- نعم .. فتاة من درب سعادة .

شعرت بطعنة . لكنها تحملتها حتى لا تنزف أمامه . كيف رفضته من قبل ؟ .. وتتألم الآن ! ..

(٥)
النائمة

قالت أمها يوماً تداعبها : أنت النموذج الأمثـل لاخـتلال عقليات هذه العائلة . تتغاضى دائماً عن مداعباتها الجارحة . وتضع رأسها وتشخر . ليس لديها غير أن تزحف إلى النوم . ما تكاد تنتهي من غسل المواعين - واجبها اليومي - حتى تذهب إلى الفراش . وإذا أيقظتها أمها لتأكل ، تنتهـي مـن تناول الطعام بكميات وفيرة .. هي ناقـة تختـزن غـذاءها لتجتره أثناء السير في الصحراء . ولعلها تجتر طعامها أثناء الإبحار في عالم السبات . وتعود إلى السرير علـى عجـل كأنما سيفوتها قطار النوم ، بعد أن تنتهي من أعمالها . حتى توقظها أمها مرة أخرى عند العشاء . وتسهر بعد ذلك تثرثر في أشياء غريبة . تتذكر حوادث بعيدة أغفلتها الذاكرة فـي طوايا النسيان . تنتشلها رغم أن أحداً لم يعد يذكرها . وتزبد وترغي حتى تصرخ فيها أختها الأخرى ، تلك التـي بقـت بجانبها عانساً ، وتقول بصوت حاد : أتخمدي يـا أختـي . تتلقى إشارة تنتظرها فتركب سفينة الوغى لتوغل في بحـار غريقة من الكرى .

لم تكن أمها تحاول أن تعنفها أو تصدها عن الثرثـرة أو الإخلاد إلى النوم . كانت تعاملهـا بحنـان لأنهـا تعتبرهـا

مريضة . شكت يوماً من شعور جارف يجتاحها لا تعـرف كنهه ، يجعلها ترى الدنيا ظلاماً والضوء في الخارج مبهراً . وهي تري الدنيا سوداء أكثر من سواد الليل . فهمت الأم من بعض النساء أن ذلك مرض اسمه الاكتئـاب . وطالبنهـا أن تعرضها على نطاسي بارع في أمراض الـنفس . وبعـض النسوة الأخريات أفتت أن سواد القلب لا يمكن شفاؤه لا فـي القريب العاجل ولا في البعيد الآجل .

قالت أمها : إن حالتك لا تسر .. لنأخذك إلى الطبيـب . وكانت هذه المرة التي تخرج فيها من المرات المعدودة فـي حياتها . إذ عادة لا تخرج من دارها فقد امتلأ جسدها ذو القد الصغير . واصبح داء المفاصـل جاثمـاً علـى ركبتيهـا . استسلمت له رغم أنه كان عليها أن تقاومه بالحركة . سألت زوج ابنتها الكبيرة مفتش الأغذية عن طبيب قادر على شفاء ابنتها . همس بينه وبين نفسه أن أذهبي بها إلـى السـراية الصفراء . فأنتم عائلة مجانين من أكبركم إلـى أصـغركم . غير أن لسانه لم يعبر عما يجول في خاطره بكلمة واحـدة . وأرشدها إلى طبيب معروف أتعابه حارقة . يريد أن يكويها فلا تفكر في أن تعود إليه مرة أخري .. وإذا عادت فلتذهب إلى الخانكة لتودع فيها هذه النائمة أبداً . بيد أن الأم لم تتوان في دفعها إلى الطبيب . اعتبرت المبلغ الذي يرسـله ابنهـا المتغرب لم يبعثه هذا الشهر . أو ضـاع فـي الطريـق . وأمرتها أن تعد نفسها لتذهب معها إلى الطبيب .

جلست ساعة تعد زينتها . وتتأمل وجهها فـي المـرآة . شعرها الأكرت تحاول أن تخفيه تحت غلالة حريرية غامقة اللون . حاجباها الغارق أحـدهما فـي الآخـر تحـاول أن تزججهما .. حتى تفصل أحدهما عن الآخر فـي المعركـة الحربية بينهما .. تريد أن تضع حداً للحرب بينهما ودخـول قوات كل واحد منهما في قوات الآخـر . وترفـع كتفيهـا وتخفضهما ، تريد أن يتوازن الكتفان .

وتسأل أمها : ألست جميلة يا أمي ؟ ..

تقول الأم جابرة خاطرها : بلى .. جميلة ..

تسألها مرة أخرى سؤالاً يحيرها :

- إنني أخطو الآن نحو السابعة والعشرين وأحد لم يتقـدم لي ؟

تقول الأم : غداً .. سوف يتقدم لك الزوج الـذي سـوف تسعدين به ويسعدك .

أمها .. كلامها دواء شاف . كلماتها بلسم يشفي قلبها لكنها تعرف أنها تصبرها على بلائها . تزرع في صدرها نبـات الصبار كلما شعرت بالخيبة التي تعيشها . هـؤلاء النسـوة العجائز اللاتي يزرنها عرفن داءها . وأن في رأسها اختلالاً ، فأخذن يذعن ذلك بين العائلات حتى صددن الرجال عـن زيارتهن طلباً ليدها . ماذا تفعل ؟ .. عليها أن تستسـلم . إذا صادفك الخطر الداهم فإن خير وقاية منه أن تتـوكلي علـى الله .

تمثلت أمام الطبيب يفحصها . وقـال لأمهـا وابتسـامة عريضة على شفتيه :

- ابنتك سليمة مائة في المائة يا هانم .

قالت تحاول أن تنقل انزعاجها إليه :

- إنها تنام كثيراً يا دكتور .. لـو كـان اليـوم خمـس وعشرين ساعة لنامت اليوم كله .. إذا لـم أوقظهـا فهـي تواصل الليل بالنهار . وإذا اسـتيقظت فـلا تكـف عـن الثرثرة .

- ربما يكون لديها كسل في الكبد يؤدي إلى هذا الوخم . سأكتب لها دواء منشطاً .. وحبوب لعلاج كسل الكبد .

قالت الأم : أخشى أن يتقلب الحال ، فلا تنـام . وتبقـي اليوم كله مستيقظة .

قال الطبيب : لا تخافي .. الإنسان ينام .. ولابد لأبنتك أن تنام .

يلتفت إلى الفتاة ويقول لها : قاومي رغبتك في النـوم .. حاولي ألا تنامي إلا ثماني ساعات متواصلة .

تهز الفتاة رأسها علامة القبول وطاعة الأوامر الصحية .

خرجت الفتاة وأمها يملؤهما البشر والسـعادة . وقالـت لأمها وهما يركبان الترام عائدتين إلى بيتهما : تأكـدت الآن أنني لست مجنونة . قالت الأم تعاتبها : ومن قال لـك إنـك مجنونة . قالت الابنة : ألم تقولي إننـي النمـوذج الأمثـل لاختلال عقليات عائلتنا . قالت الأم كأنما تبرر أقوالها : ليس كل مختل العقل مجنوناً .

اشترت الأم الدواء من الصيدلية القريبة من البيت وصعدا معاً إلى الشقة . كانت أختها الأخرى قد أعدت مائدة الطعام . وجلسن يأكلن . وبينما كانت ذات العينين الخضراوين تأكـل بتأن . كانت ذات الحاجبين السابح أحدهما في الآخر تأكـل بنهم . ودفعت إليها أمها بالدواء لتزدرد حبتين . فازدردتهما بكوب ماء . وقامت لتغسل الأواني والأطباق .

وما كادت تتحدث مع أمها عما قرره الطبيب حتى رقدت فاتحة ذراعيها للنوم الكبير وهو آت إليها . تسألها أمه : ألـم يطلب منك الطبيب أن تقاومي الرغبة في النوم . تقول الفتاة وهي تستسلم للنوم : لا أستطيع .. لا أستطيع ..

(٦)

العصبي

يجد الوقت في الجلوس بجانب أمه بصعوبة . يشعر بمتعة خاصة أن يحدثها . يعود طفلاً صغيراً يستمع إلى حكاياتهـا ونصائحها . تغدق عليه الحنان . كثيراً ما يحدثها عن مشاكله في العمل ومشاكله مع نفسه . يتطلع معها إلى الأيام الخوالي . لم يكن يصدق أنه سينقل من أسيوط إلى القاهرة لكن ذلـك حدث . يبدو فعلاً أنك إذا تركت أمراً جاء لك خاضعاً . وإذا ركضت خلفه فات منك هارباً . تركت أمر نقلي من أسـيوط إلى القاهرة ، وانشغلت بعملي وقضاء حاجـاتي المعيشـية . وبغتة صدر قرار بنقلي إلى مصرف القاهرة الرئيس . أيكون ذلك بسبب طباعي العصبية . قرروا أن يلقوا بي فـي لجـة

الموظفين الكثيرين حتى يضيع أثري . كان ذلك الأثر بليغـاً وسط نفر قليل في المصرف الفرعي بأسـيوط . أنـا أحتـد وتشتد أعصابي وأناقش بقوة وعنف . رفضوا أن يكون هـذا الكاتب ألمعياً . يصحح لهم أخطاءهم في عملياتهم المصرفية . ويبين مواطن الضعف في كتاباتهم . وأستمر علـى هـذه الحال بعد أن تسلمت عملي في القاهرة . إذا زرعوا الحنظل في أرض وعادوا ليزرعوا بذوره في أرض أخرى فلن تنبت غير الحنظل .

راحت الأفكار تنساب من مخيلته ، وهو جالس أمام أمـه متوتراً . كان يريد نوعاً من اللحم يعد على المائدة ، غير أن أصغر البنات لم تعده فثار عليها . قابلت حدة طبعه بالدموع . هذه البلورات تؤثر فيه تماماً فيجلس مضطرباً . أأخطـأ أم أصاب . تلك مشكلة حياته . توتره يجعله يخلط بين الخطـأ والصواب .

يسأل أمه وهو في داخله يتألم :

- لا أدري .. ما سبب هذه العصبية ؟ ..

تقول أمه ضاحكة :

- لأنك مختل العقل .

كل واحدة في العائلة تتهمه بالخلل . ولا يوجد في العائلة أحد غيرها لديه الحكمة والحنكة والصبر والأناة .

يستنكر قائلاً :

- أأنا مختل العقل حقاً ؟ ..

تقول الأم متهكمة :

- ورثتم الخيبة من أبيكم .. اختلال العقل واضـح فـي العائلة . أختك الكبيرة جاء اختلالها في لسانها ، فهي لا تكف عن الثرثرة . وأختك القاطنة في طنطا جاء اختلالهـا فـي التنقلات كأنها قطار ليس له محطة نهائية . وأختك القاطنـة في شبرا جاءها ذلك المرض في صورة الأكل المستمر دون وعي حتى أصبحت فيلاً . أما هذه التي نهرتها فإن اختلالهـا في ذلك الاكتئاب المرتسم على وجههـا أبـداً . أمـا هـذه السنيورة ذات القد الممشوق والقوام الميـاس ذات العينـين الخضراوين فمرضها العقلي يتمثل في إصرارها على رفض الزواج . .. وأنت يا ضنايا جاء المرض في هذه العصـبية التي لا مبرر لها .. كأنك مهدي يجب أن تطاع .. أعصابك تحرك عقلك . لا عقلك يحرك أعصابك ...

يقول مقاطعاً

- أعتقد أن ضـغط العمـل فـي البنـك .. ومـذاكرتي للدراسات العليا .. وضيق الشقة .. تلـك عوامـل تسـبب احتدادي المستمر على الناس .

يسكت وقد عرف أسباب علته ثم يسأل :

- وما العمل ؟ ..

قالت الأم ونبرة السخرية لا تزال في لسانها :

- أذهب إلى طبيب نفسي يا بني .. يعالجك مما أنت فيـه ؟ ..لا العمل هو السبب .. ولا المذاكرة .. ولا ضيق الشـقة .. السبب كامن في نفسك . وأظنه جنون العظمة .

يضحك . ثم يسكت قليلاً ويقول :

- أقول لك الحق أنا ذهبت إليه .. وقال لي أنت خال من العقد أو مركبات النقص . إن ضغوط الحياة تضع في نفسي هذه التوترات .

تقول الأم وقد اتخذت قرارها :

- إذاً ليس أمامك سوى الزواج . قد يكون المتنفس الوحيد لكل آلامك . ستجد زوجاً تشكو إليها وتحنو عليك ، فتكـون بلسماً للجراح .

يقول بأسى :

- ومن ترضى يا أمي برجل .. يعيش في شقة ومعه أمه وأختاه . ومرتبه لا يتجاوز الثلاثين جنيهاً .. وليس له قـدرة على دفع مهر أو شراء شبكة مناسبين .

تغمز بعينها . تتهمه عينها بالكذب . وتقول ساخرة :

- إذاً الصبر خير وجاء لك .

كانت أمه تدرك بفطنتها التي لا تخيب أنه يـدخر علـى الأقل عشر جنيهات شهرياً .. وأنه يخفي تفاصيل مرتبـه ، وهو يزيد عما يعلنه . نظرت إليه بإمعان ولا تزال السخرية تتلاعب في عينيها :

- أمعقول أنت لا تملك قيمة الشبكة والمهر يا بني ؟ ..

قبل أن يجيب تقول له :

- على العموم .. حينما تجد بنت الحلال عجل بالزواج .

يسأل : وما السبب ؟ ..

تقول : حتى لا يكتشفوا داءك فيفسخون الزواج قبل أن يبدأ .. يكونون قد شربوا المقلب تماماً .

(٧)
الخطاف

تعرف أن جارتها قلبها أبيض ، ولسانها لا ينطق العيب ، مالت إليها ، وطفقت تزورها . تحاول أن تمارس مواهبهـا في الحديث معها ، فتكلمها في كل شـئ . كانـت تريـد أن تتقرب إليها لهدف في نفسها ، حاولت بكل السبل أن تطمسه . كان للجارة ولدان . أحدهما كبير أنخرط زمناً في الجيش ، وتمكن أن يصل إلى مرتبة عالية من رتب صف الضـباط ، ثم نُقل إلى القسم المدني بالقوات المسلحة ، فصار يرتـدي الملابس المدنية . ونُقل مرة أخرى إلى جهاز له مكانته . أما الآخر فكان لا يزال صغيراً ، ويشق طريقـه فـي التعلـيم بصعوبة يكاد يزحف لا يعرف كيف يخب مثل أنداده . أمـا العائل فقد توارى عن الأنظار في زمن غزت فيه الكـوليرا البلاد . وبينما تسأل جارتها :

- ألا تزوجين ابنك الكبير ؟ ..

كانت خططها تُنسج على أساس أن يخطب إحدى أختيهـا العانستين . لقد أصبحتا مثل أسدي جسر قصـر النيـل ، لا يفارقان أمهما مثلما لا يفارق الأسدان الجسر . إحـداهما لا تتزوج لأن الجمال هرب منهـا . وفقـدت ملامـح الأنثـى بركونها إلى إهمال زينتها وإفراطها في الغذاء . والأخـرى صغيرة القد جميلة الوجه تفيض منها الأنوثـة غيـر أنهـا تضرب عن الزواج ، والأسباب مجهولة . كثيراً ما حاولـت

أن تتقمص صورة المحقق الذي يستجوب . غير أنها كانـت تضرب باستجوابها عرض الحائط .

تقول الجارة على الفور مجيبة بسذاجة منقطعة النظير :

- أخيراً استقر رأينا على ابنة أحد أقربائنا ابن عم غير شقيق .

تسأل وقد تحركت مخططاتها وجهة أخـرى ، انحـرف تفكيرها بزاوية قدرها مائة وثمانين درجة :

- وما مواصفاتها ؟ ..

تقول الجارة في الحال :

- بيضاء .

تنظر بإمعان إلى إهاب الجارة ، فتجد الاسمرار يدب فيه أصابعه ، لذلك عرفت أسباب أن تنطق بهذه السرعة بـأول صفة في العروس . وتسمعها تستطرد كأنهـا تتغـزل فـي العروس :

- عيون غزلاني .. اخضرار ممزوج بالذهب .

- يا لها من حلاوة .

- طول فارع .. وجسد بض ..

- أنت تتغزلين فيها يا خالتي .

- لقد ألححت عليه منذ زمن طويل لكنه كـان يتغـابى . حينما خلع الملابس العسكرية .. وصار مدنياً . بدأ يفكر في الزواج .. ربما لأنه كان مشغولاً طول اليوم في عمله . أما الآن فقد بدأ يذهب ويجئ كالموظفين .

- وأين يسكنون يا خالتي ؟ ..

- قريباً منا .. على بعد خطوات .
سألتها بإلحاح :
- أين ؟ ..
ووصفت الجارة المكان بالتفصيل بإسـهاب وسـذاجة .. كأنها ضابط يصف موقعاً حربياً لعساكره للهجوم عليه .
استأذنت حتى تعد طعام الغداء لزوجها فهو لا يبقى فـي البيت مثله مثل الموظفين ، لكن لديه أعمالاً إضافية ليليـة . يجب أن تعمل على تغذيته حتى يمكن أن يواجه صـعوبات الحياة . واحتضنتها الجارة بحرارة ، أم رءوم لا شـك فـي ذلك . مسلية ضحوك ، ولا تكف عن الثرثرة ، كأن الوقـت كله عندها أحاديث . كأن في رأسها صندوق لا يفتـأ يفـرز حكايات وحكايات . وما عليها إلا أن تقوم بدور الـراوي أو المتحدث . وهي تبادلها نفس الخصال . ويمر الوقت دون أن تشبع الواحدة من الأخرى أو تملها .
حينما حضر ابن الجارة من عمله في الظهيرة . أصـبح منتظماً في الحضور ، بعد أن كان كل وقتـه يقضـيه فـي الثكنات العسكرية . بادرته بثقة : أستعد يا ولـدي ، سـوف نذهب يوم الخميس إلى ابن عمي لنخطب ابنته .
- وهو كذلك يا أمي .
قال الكلمات كأنما يحاول أن يرضي أمـه . صـار مـن اللازم أن تشاهد أحفادها ، وعليه واجب تحقيـق رغبتهـا . استقبلهما ابن عمها بالترحاب . ونهضت زوجه البدينة تشق طريقها - وسط الشقة المزدحمـة بالأثـاث - بصـعوبة .

وتأخذها في أحضانها . وتستمر القبلات حينا مـن الـدهر . خلال ذلك كان ابن بنت العم قد صافح ابن العـم بحـرارة . وصافح بقية أهل العروس الموعودة وأمها وأختها الصغرى . وسأل عن الابن الضابط المتخرج حديثاً . قال الأب : لـم يبق إلا قليلاً في القاهرة . وصدر قرار توزيعه على إحـدى الوحدات في العريش .

قال ابن بنت العم بثقة من يدري بشئون الجيش دراية كاملة :

- على العموم خير ، فالمرتب يضاعف في العريش .

ورأى ابن بنت العم على وجه الأب ارتياحاً . وهو يعرف كيف تكبد الرجل كثيراً من أجل إلحاق ابنه بالكلية الحربية ، وهو موظف عادي ، ليس له طين في بلده ، وليس له عقـار يدر مالاً . وها هو الآن يجني الثمار مضاعفة .

انصرفت العروس الموعودة لتعد القهوة . بينما بـادرت بنت العم ابن عمها قائلة :

- جئنا اليوم لنطلب ابنتك الجميلة ..

وجرت الأخت الصغرى لتخبر أختها بالخبر . بينما أبوها يقول :

- كيف يحدث ذلك ؟ ..

- هل ترفض يا ابن العم أن يكون عريساً لابنتك ابن بنت عمك ؟

قال الأب ضاحكاً :

- أبداً .. أنا أتمنى .. لكن ما حدث هـو أن جـاء يـوم الثلاثاء الماضي شاب هو وعائلته . وطلـب يـدها وقرأنـا الفاتحة .. كانت أخته الكبيرة تصر على قرأتها . واضطررنا لأنه لا يعيبه شئ . لم نكن نعرف شيئاً عن نيتكم .

- أي عائلة تلك التي تفضلها على أقاربك يا ابن عمي ؟

- أنت تعرفين أن النبي عليه الصلاة والسلام قد قال في حديثه الشريف أن لا يخطب المرء على خطبة أخيه .

- وما ذا يعمل ذلك الأفندي ؟ ..

- إنه يعمل في أحد المصارف المصرية .. وقد أعطاني هذه البطاقة لأسأل عنه .

تقرأ عينا المرأة الضعيفتين . وتعطـي البطاقـة لأبنهـا ليتزود هو الآخر . وهو منكس الرأس مهموم .. كأنما تعثر في الطريق بحجر صلد هشم أصابع قدميه . يسأل ابن بنـت العم قائلاً :

- أليس هذا أخا جارتنا يا أمي ؟

- أعتقد أنه هو بالفعل .

- نعم .. هو .. هو .

خرجت بنت العم من لدي ابن عمها تتميز غيظـاً . لقـد استدرجتها الجارة الملعونة وعرفت العنوان وذهبـت هـي وأخوها وعائلته . سرقت الجارة العروس لأخيها . خطفتهـا من ابنها . والله لتكن ليلتها سوداء .

طرقت بابها . وابنها يصعد إلى الدور التالي تاركاً أمـه تتصرف كما تريد . فتحت الجارة الباب . وقالت ببرود وقد أدركت سر الزيارة :

- أهلاً ..

قالت بغضب :

- كيف تجرؤين على اختطاف العروس التـي اخترتهـا لأبني ؟ ..

تتساءل بانزعاج : أنا أخطف يا امرأة .. أنـت تهـذين . تزمجر قائلة : ألم يخطب أخوك بنت ابن عمي تلك التي قلت لك إننا ذاهبون لخطبتها . تهز رأسها بثقـة وتقـول : نعـم خطبها . ومن سبق أكل النبق . سألت : ألم أدلك أنـا علـى بيتهم .. وأخبرتك أننا سنذهب يوم الخميس لخطبتها .

ويسمع الابن ، وهو يفتح باب شقته . صـوت امـرأتين تتصارخان .. تتعاركان .

(٨)

الحسود

بيت العروس قريب من بيت أخته . يسكن آلها في دار صغيرة ذات حديقة واسعة .. تتسع لعشش الدجاج والبط والإوز والأرانب . وتضيق على الخضرة والأزهار والأشجار . كان البيت واسعاً قارنه بالحجرات الثلاث التي يسكنها الآن .. فتحركت أوراق شجرة الحسد النابتة في صدره . واهتزت . لم يكن الأثاث فاخراً كما تصور لكنه يختلف عن أثاث بيتهم . يكاد ينطق بالرونق والأناقة في تلك الحجرات الواسعة . ويكاد يغطي على أثاث شقته . وتحركت أوراق شجرة الحسد واهتزت . كيف يكون شيئاً غير مذكور حتى الآن ؟ .. ولماذا ينضب معين المال في جيبه ويفيض عند غيره ؟ ..

كان يداري شجرة الحسد النابتة في صدره بالتعوذ بالمعوذتين . ويحاول أن يخفي حسده للناس بقراءات قصيرة من آي القرآن الكريم . كأنما يقي الناس من شره . كان يعرف أن عينيه حسودتان ليس في يده حيلة أن يمنع نفسه من الحسد .علمه الفقر وضغطت عليه الظروف وسخرت منه الشهادة المتوسطة وجعلته حسوداً . وقد عرف نفسه يوم أن نظر إلى حذاء جديد اشتراه زميل له فأسقط عليه شعاع عينيه فجاء صديقه في اليوم التالي دونه وأدعى أنه فسد بسبب لا يعرفه . وكان مدعواً إلى حفل ساهر فما كاد يجلس

ويشاهد المائدة حتى سمع صاحب البيت يـدعي أن اللحـوم المعدة للمائدة احترقت .

كيف يقي الآخرين شر عينيه السوداوين اللذين يخفيهمـا حاجبان سوداوان كثيفان .. لا يدري .

لا يدري متى بدأت بذور الحسد تنمو في صدره . لعلهـا بدأت حينما لم يجد أمامه غير المدارس التجارية يلتحق بها . وبدأت تترعرع حينما شاهد نفسه تتخرج حاصلة على دبلوم التجارة ، وزملاؤه الذين كانوا معه في المدارس الابتدائيـة يدخلون الجامعة . لقد انفصل عنهم منذ ذلك الحين على زعم أنهم أغنياء جامعيون . وطفقت شجرة الحسـد تنبثـق مـن صدره ، وهو يرى الزملاء الذين لا يستحقون فـي نظـره يعملون صرافين في المصرف . وهو مجرد كاتب على الآلة الكاتبة . أو مسجل للصادر والوارد في كشـوف المصـرف النموذجية . وحينما قويت الشجرة وصمدت صمم أن يلتحق بمعهد عال للدراسات التجارية يبيح الانتظام في المساء لتلقي العلم .

شعر بارتياح حقاً حينما تُوج عمله بدبلوم المعهد ، لكنـه بدا أمام نفسه ضابطا من ضباط الاحتيـاط بـين الضـباط الأصليين . يعامل من العسكر ضابطاً مرموقاً . ويعامل من الزملاء والرؤساء عسكرياً رقي إلـى ضـابط . يتجنبـون مزاملته ويتعالون عليه . يوم قدم شـهادته إلـى المصـرف ورقي إلى وظيفة صراف . وبدأ يتعامل مع زبائن المصرف مثلما يتعامل حملة بكالوريوس التجارة .غير أن الزمن كـان

كفيلاً بردم الهوة بينه وبينهم حتى صـارت أرضـاً يمشـى ويمشون عليها دون تكلف .

وجاءت يوماً أخته الكبرى تصحب زوجها مفتش الصحة على الأغذية . وقالت له : لقد وجدت لك عروساً .. الواجب بعد أن رقيت أن تتزوج .

قال بأسى : وهل تقبل العروس أن تزف في هذا البيـت الضيق . وتتعايش مع أمي وأختي ؟ .. كاد ينطـق بكلمـة العانستين غير أنه امتنع فقد كانتـا حاضـرتين المقابلـة . واستطرد قائلاً : وأين قيمة الأثاث ؟ ..

قالت بهدوء : لا تحمل هماً .. أنا أتكفل بكل شئ .

أحنى رأسه وشجرة الحسد تهتز . وأوراقها تلاطم وجهه . كيف يكون معها وليس معه ؟ .. لعلها تستولي على مرتـب زوجها أولاً بأول وتدخر منه ؟ .. أما هو فلا يتبقى من راتبه شئ ... يا رجل .. ألا تدخر ؟ ! .. نعم لكنه ادخار بسيط لا يكفي لمواجهة مطالب الزواج كاملة . وهل لا أنفق على أمي وأختي . ولكنك تخص نفسك بالنسبة الكبرى من الراتـب . وهن لا يشعرن . إن الزواج اصبح الآن ضرورة ولا يجوز أن يتراجع في الإقدام عليه . فالصبر نفد رغم أن أمه طلبت منه أن يتجمل به . ألتحق بنادي الشبان المسـلمين ومـارس الرياضة فيه . بل مارسها في نادي المصرف . وكان يجـد وقتاً في الفترة من الساعة الثالثة حتى الساعة الرابعة فينهـك جسده تماماً حتى لم يعد يشغل فكره شئ له علاقة بـالجنس الآخر . واعتباراً من الساعة الخامسة حتى الثامنة كان ينتظم

في محاضرات المعهد العالي .. وبعد ذلك نجح واصبح هناك في الوقت متسع . فكيف يقضـيه ؟ .. لا بـد مـن أنـيس وجليس .

وها هو قد حضر مع أخته الكبرى وأخته العانس المتكبرة وأمه الرءوم يطلبون يد المحروسة الصغيرة .

حينما شاهدها شعر أن قلبه يختلج .. بيضاء وهو الأسمر . وعيناها خضراوان فيهما مزيج من العسـل والخضـرة . وهو صاحب عينين سوداوين . طويلة رشيقة . انبهر بجمالها كما لم ير جمالاً من قبل . وطفقت أخته الكبرى تتكلم ، فهي تجيد الثرثرة ولا تتوقف . ولا تسـمح لأحـد أن يوقفهـا . واستمعت إليها حماة المستقبل بإنصات . وحمـا المسـتقبل يدخن سيجارته ويستمع هو الآخر . أما العروس فقد خرجت لتجهيز عصير الأفراح لتقوم بتقديمه يوم يأزف الإعلان عن الزواج . ولم يكن هناك أخو العروس ، فقد اتضح أنه ضابط متخرج حديثاً ومكان عمله في وحدة عسكرية نائية . ولـم تكن هناك أخت العروس الكبيرة فقد كانت متزوجة وتسـكن هي وزوجها في مدينة صناعية عريقة . أما أختها الصغرى فكانت تلعب في الحارة ..

سألت أم العروس : ما مواصفات الشبكة ؟ ..

قالت أم العروس : نحن نناسب رجلاً . وسألت أخت العروس : وما قيمة المهر ؟ ..

قال الأب : لا أهمية للمهر ومقداره ما دام ولدنا رجلاً .

هذه عائلة كريمة لا شك في ذلـك . شـعر بـان أوراق الشجرة النابتة في صدره لم تعد تهتز . وأنها تـوارت عـن الأطلال من عينيه . لا يمكن أن يحسد نفسه على الهنـاء . وانتعش وصفق قلبه وأخته الكبيرة تقول : لنقرأ الفاتحة .

(٩)
الهدية

لا تدري كيف وافقت على هذه الزيجة ؟ .. كأنما كانـت نائمة ودخلت الحياة الجديدة دون أن تدري . رجل عصـبي المزاج طابعه استبدادي ، يريد أن يأمر فيطاع ولا يتورع في توقيع العقاب دون تحقيق . وحماة ناعمة الملمس والصـوت كعقرب يلسع . وأخت نائمة أبداً لكن حينما تستيقظ وتريد أن تُخدم ومطالبها لا تحصى . وأخت ناعمة مثل أمها كلامهـا لذيذ وحديثها شهي لكن من يعارضها في تخطيطها تطحنـه بشدة ولا تبالي عواقب الطحن . وكلهم يريدون أن تخدمهم . يبدو أنه ما تزوج امرأة يأنس إليها وتـوده ويرحمهـا إنمـا استخدم شغالة ! ..

حينما أفاق يوماً زوجها على هذه الحقيقة أمر أمراً صارماً ألا تخدم واحدة منهن . وأن تكون طوع بنانه فقط غير أنهـا لا تستطيع ، لقد سقطت في دوامة لا تتمكن من الخروج منها . عيبها الوحيد أنها خضوع . تخجل من أن ترد لأحد طلبـاً ولا تلبي طلبه . وهكذا نشأت المعارك بينها وبـين زوجهـا بسبب ألا تلبي طلباتهن أو تلبي طلباتهن . زوجها يأمر وهي

لا تستطيع أن تطيعه في ذلك . الحماة ضعيفة تستحق الخدمة . والنائمة دائماً مكتئبة أضعفتها الأدويـة التـي تتعاطاهـا وتطلب الرعاية . والناعمة مثل أمها تريد أن تكـون سـيدة تأمر وتنهي لا أن تكون خادماً مثلها .لكن نشأ بجانب عيبهـا ذكاء لامع هو الذي خفف كثيراً من ميلها إلى الابتعاد عـن التحدي ، لذلك لم تكن سهلة وخنوعاً ،فأخذت تفكـر كيـف تزيح - على الأقل - تلكما البلوتين من طريقها . ولم تجـد خيراً من أن تسعى لأن تزوجهما . ووعدتها أمهـا خيـراً ، ولكنها كانت تتشكك في إتمام ذلك . وعاشت على أمل ظنته أملاً كاذباً . فمن هو الذي يتزوج امرأة مريضة بالاكتئـاب ونائمة إلى الأبد ؟ .. ولن تكون سيدة بيت مرموقة . ومـن يتزوج من امرأة متكبرة تتكلم من طرف أنفها لا تهين يديها في أعمال البيت وتتحرك بكبرياء . ولو أن جمالها يشفع لها ، لكن تتعامل مع الناس بإنفة .

وقبل أن تجد العريس للصغرى . طلبت منهـا أمهـا أن تقوم بتجميلها وتهيئتها حتى تكون مقبولة ..سألت من يكـون العريس ؟ .. فوعدتها أن تكون مفاجأة .

وفعلاً أمسكت بها وحثتها على أن تجملها فاستسلمت الفتاة النائمة أبداً . وكان حاجباها قد غرق أحدهما فـي الآخـر ، فأقامت سداً بينهما واستقل كل حاجب بعين يحرسها . وكـان الزغب قد انتشر في شاربها وفي أنحاء من ذقنها . فقامـت بحملة شعواء عليه فسقط على الأرض يئن من الزجج . ثـم كنسته المقشة إلى غير رجعة . وقامت بكي شـعر الـرأس

فاستقام ولو أنه تمنع في الرقاد على الرأس فأخفتـه بمنـديل حريري . وهكذا وصلت حملتهـا علـى شـعر الـذراعين والساقين . وحولت العروس المقعدة والخاملة إلـى عـروس نشطة متفتحة حيوية .

حينما عاد زوجها من الخارج سألها :

- من تكون هذه السنيورة ؟ ..

تساءلت باستغراب :

- ألا تعرف أختك ؟ ..

حينما تأملها بعمق لم يصدق . بينما كانت أمـه الناعمـة تدعو لها بصدق لأول مرة . وكانت كثيرة الدعوات . وكانت أخته المتكبرة لا تنطق ولكنها مندهشة من يد زوجة أخيهـا المبدعة .

وفي المساء جاء العريس . يصحبه أبوها وأمها . أبوهـا الذي لا يفتأ يدخن السيجارة بعد الأخرى . لا تنقطع صـورة السيجارة في يده . وأمها المحتشمة ذات العينين الخضراوين والبدن المكتنز . عرفت العريس أنه قريب لهم .. فهـو أخ غير شقيق لزوج ابنتها الكبرى ذلك الذي يعد ابن عمة أمها .

تخوفت على الفتاة من مستقبل مظلم . هو موظف مـدني حقاً في سلاح الطيران ، لكنـه معـروف بقلـة الادخـار . واختفاء مرتبه في اليوم الثالث من الشهر . غيـر أن أمهـا طمأنتها أن الزواج يوصف لمثل هؤلاء الرجـال يصـونهم ويعجل باستقامتهم .

جلست العروس في كامل زينتها . ولم تنطـق . كانـت التعليمات قد صدرت إليها ألا تتلفظ كلمة واحـدة . حتـى لا تتورط . وكانت مناوشات النوم تداعب عينيهـا غيـر أنهـا تمكنت من طردها . وقامت لترتيب أكواب العصير بعـد أن تم الاتفاق مع أخيها . لم يفاصل الرجل في الشبكة والمهـر كأنما يريد أن يرد الدين الذي في عنقه نحو حميه . فأبوها لم يفاصله في شئ من قبل . لكن كان هناك سبب خفي آخر هو أنه يريد أن يزيح هذا العبء عن كاهله . يريـد أن يحملـه لآخر .

لم تعترض أختها العانس الأخرى . كانت تكبرها بسنتين . كانت قد عقدت معاهدة مع الزواج ألا يدنو منها وأعلنـت نصوص المعاهدة . لم يعرف أحد سر خصـامها للـزواج ، وأيقنت زوجة الأخ أن في حياتها سراً ولكنها تكتمـه . مـن أجل ذلك أحترمت رغبتها وتم تخطيهـا لتتـزوج الأخـت الصغرى .

بعد الفرح بوقت طويل وأحداث كثيرة . حضر العـريس مع العروس لزيارة حماته وأهلها المقيمـين معهـا . مـال العريس على قريبته زوجة الأخ . وقال لها يهمس :

- إن والديك أهدياني بهدية رائعة .

كانت تعـرف قيمـة الهديـة ، فنظـرت إليـه بعينيهـا الخضراوين المليئتين بالعسل . وقالت بنفس الهمس :

- إن الهدية لا ترد .. وقد دخل عطرها فـي خياشـيمك ولن تتمكن من أن تطرده منه .

(١٠)

المستجيرة

هذا ليس بإنسان . هذا مخلوق يرتدي ملابس البشر . هل تحركه الغرائز . تقوده الشهوات . أم يعتريه نوع من الجنون مجهول الاسم . أهو أناني أم يضحي بالغالي والنفيس . هـو كتلة من المتناقضات تجمعت . صفعها منذ قليل لأنها أبطأت في تحضير المائدة . يدخل دائماً وهو يعود من عمله كمـن خارت قواه . يطالب بإعداد المائدة . علا صراخه . وصاح وغضب . ثم لا يتوان عن صفعها أو زغدها في صـدرها . أو طرق رأسها في الحائط . جارية هي اشترتها له أمه . هل هو عصبي أم يدعي مرض الأعصاب . تبكي وتنزوي فـي حجرة الاستقبال . وقد أغلقتها بإحكام عليها .

تنهض أخته لإتمام إعداد المائدة .

في داخل الحجرة ، والدموع تنهمر أمطاراً لا تتوقـف . تقارن بين حياتها الأولى وحياتها الجديدة . وتجد أن الفـرق ليس كبيراً . لقد تركت أباً قاسياً هو الآخر . زالف اللسان . بخيلاً . يحب نفسه . يصرف الآلاف على السجائر ، ويشح بما في جيبه على مصروف بيته . كان يتركها تـذهب إلـى مدرستها وقد رتقت أمها ثيابها . وكادت أصابع قدميها تبرز من حذائها . ويتعلل أن المرتب لا يكفي .. لم لا تتوقـف إذاً عن التدخين وتكفي بيتك ؟ ..

حينما تقدم ذلك العصبي لخطبتها ، أعلن أبوها أنـه لـن يتكفل بشيء . أخبر عائلته ذلك صراحة لكنه كتم هذا الأمر

عن العريس وعائلته . وتدخل أخوها وتكفل بها . هو ضابط حديث العهد بالعسكرية . كان يدفع بعض مرتبه وفاء لـ دين اقترضه أبوه لمصاريف الكلية الحربية . وصار يدفع قسـ ط الأثاث الذي جهزت به أخته . لم تعارض هذه الزيجة الجديدة حتى تنتهي من هذه الحياة الكئيبة . ولما كان تعليمها متوسطاً فلم تكن تطمع في شاب أثرى من عريسها أو أكثر منه تعليماً . كان التعليم وقتها مدفوع المصـ روفات ، فجعلهـ ا أبوهـ ا تنخرط في مدارس التدبير المنزلي توفيراً للنفقـ ات ، رغـ م ذكائها ونباهتها وقدرتها على الحفظ والتذكر .. لأنـ ه كـ ان تعليماً مجانياً .

توسلت عيناها لأخيها أن يسرع في هذه الزيجة حتى تفلت من هذا الأب القاسي . وانتقلت من جحيم إلى آخر .انتقلـ ت إلى زوج أكثر قسوة من أبيها ربما كان أبوها يستعمل لسانه المر يومياً ولا يمد يده إلا قليلاً . وحينما كبـ رت صـ ار لا يستعمل إلا الكلمات القبيحة . أما ذلك الزوج فهو يستغل قوته اللفظية والبدنية معاً وكثيراً .

لا تنكر أنه يختلف عن أبيها في أنه يغرقها بملابس جديدة متنوعة وبزخارف تحيط بها معصمها وعنقهـ ا وصـ درها ، وبأصناف من الطعام لم تشاهدها ، لكنه قاس غليظ القلـ ب . وفي أحيان أخرى حنوناً عطوفاً . غير أن تلك الأوقات قليلة .

كانت تظن أنها سوف تستقل في بيت الزوجيـ ة . هكـ ذا وعد زوجها أباها أمام الجميع أن يستأجر شقة وتستقل أمـ ه

وأختاه العانستان في شقة أخرى . لكنه نكث بوعده وجمعهن معاً في شقة ضيقة واحدة . جديدة حقاً لكنها لا تعد مملكة لها . وقد استطاعت أن تزيح العانس الصغيرة بزواجها من ذلك القريب المفلس أبداً . لكن أخته الناعمة التي تلدغ وتطيب في نفس الوقت لم تفكر أن تبرح البيت واسـتمرت تـرفض أي عريس يتقدم إليها .

كان يتناول طعامه ويفكر فيما أحدثه فيها مـن جـراح لا تراها العين ويحسها القلب . كيف يفعل ذلك في تلـك التـي ترعاه أكثر مما ترعى نفسها . تباً لهذه النفس الغضوبة . تباً لهذه الأعصاب الفالتة . إن ثقل العمل أورثنـي الغضـب وثورة الأعصاب . إن التعامل بالآلاف كل يوم صار سـيفاً ضاغطاً على عنقي . هل أحاول أن أفرغ شـحنة الضـغط بالثورة على الضعيف . أنا إنسان غريب يرتكـب الخطـأ بجنون ثم أسرع بمداواته . ألا سبيل لعلاج نفسـي ؟ .. ألا يمكن أن أكون سوياً كبقية الناس ؟ ..

كانت زوجه هي الضعيفة الوحيدة التي ينفجر فيها غطاء البخار المكتوم . يعود مضغوطاً من عمله يناقش نفسه فـي موازنة الإيرادات بالمصروفات التي أعدها في المصـرف . وكيف كانت تنقص مليماً أو تزيد قرشاً وكيف رفعـت مـن ضغط دمه في رأسه حتى استطاع أن يوازن بـين الـداخل والخارج . ويدخل الشقة الضيقة . إنها تزيد توتره وتجعلـه ينفجر كمداً وغيظاً . وتواجهه أمه بالشكوى من زوجته التي نامت كثيراً كأنما تقلد أخته التي غادرت البيت بعد مشـقة .

وكيف لم تعد الطعام حتى ذلك الوقت . ودون تحقيق يعنفهـا ثم يكتشف بعد عتاب شديد اللهجة أنه أهوج وأنها أعدت كل شيء . وأن أمه كانت هي النائمة . وتنكمش العجـوز فـي مقعدها وتعود إلى نعومتها . وتقول بصوت خفيض لا يسمعه أحد : ومن أين لي أن اعرف أنها أعـدت الطعـام وبـاب حجرتها كان مقفلاً طول الوقت ؟ ! ..

ثم يحاول أن يسترخي قليلاً قبل أن يلتهم المأكولات الطيبة ، فيجد ضيق الشقة يطارده ويجثم على أنفاسه فيزداد توتراً . ويندفع يفرغ شحنة الغضب في صـدر زوجـه . ولا تبـدو أسباب الغضب معقولة أو مقبولة .

حينما تجري الدماء في جسده المتين المليء .. يشعر أنه ارتكب أثماً لن تغفره له السماء إلا إذا غفرته لـه صـاحبة الشأن . كان حسه الديني مرهفاً يعيده إلى التعقل كلما جنح . يحاول أن يصالحها فلا تبالي . يدق باب حجـرة الاسـتقبال عدة مرات فلا تستجيب . لولا ذلك الذي يتحرك في أحشائي لغادرت تلك الجحيم إلى الجحيم القديمة . لكن هل يقبل أبوك أن تدخلي عليه هاربة من بيت زوجـك ؟ .. ومـاذا لـو عرف أن في أحشائك جنيناً ؟ .. عادة ما كانـت تسـمع أن الأبناء يضعون أنوف الأمهات في الرغام ولا يهدمن بيوتهن من أجلهم ، وها هي تدرك صدق هذه العبارة .

بعد لأي وتهديد بكسر الباب تفتح . ويمد شفتيه إلى جبينها يقبله . ولا يعتذر لها بالقول إنما بالقبل . يشد رأسـها بقـوة

وهي تقاومه بشدة . يكاد رأسها يخلع من عنقها وهي تتملص منه .

ومن بعيد في الحجرة الثالثة بالبيـت تمصـمص أختـه العانس شفتيها أسفاً على هذا الرجل الخرع . لكنها لا تعرف أن زوجة أخيها استجارت من الرمضاء بالنار .

(١١)

الشبكة

غابت في الداخل . وكاد يكون الزمن دهراً . تتبرم أختها الكبيرة ، وهي جالسة قلقة . وأختها الوسطى جاءت خصيصاً من طنطا لتبارك زيجتها المفاجئة . وكانت تحاول من حـين لآخر أن تعدل من كنوزها اللحمية حتى تبلغ وضعاً مريحاً . تحاول أن تصل إلى الوضع الأمثـل فـي الجلـوس لكـن محاولاتها باءت بالفشل . وكانت زوجة الأخ تنتظر بقلـق . وطال انتظار خروجها لكنه لم يحدث . كان أخوها الغضوب جالساً يمسح العرق . الشقة ضيقة والوقت صيف والأنفـاس تضيق هي الأخرى فتزيده توتراً . زوجها - العريس الجديد - ترتسم على شفتيه ابتسامة باردة .. لا حرارة فيها . تبـدو السخرية تجاهد في التخفي وراء الابتسامة غير أنها تعـاود الظهور على ملامح وجهه . هو يعرف سبب تأخرهـا فـي الحجرة بالداخل لكنه لا يهتم . يعرف جيداً المحنة التي تعاني منها بيد أنه لا يلوي على شيء .

نهضت زوجة الأخ تستطلع الأمر . دخلت عليها حجرتها فوجدتها تبكي . سألت مستفسرة :

- لم تبكين ؟ .. لم يمض على زواجك أسبوع كامل ؟ ..

قالت ممتعضة :

- لقد باع زوجي شبكتي . ولو عرف أخي ذلك لتعـارك معه . أنت تعرفينه جيداً ..

- انهضي . وتصنعي أنك نسيت وضعها في معصمك .

دخلت بعد قليل تستقبل الجميع . غرقت في قبلات أختيها . وقد جففت دموعها . لا تفكر الآن في النوم حبها الوحيد . ولا الطعام غرامها الأبدي . تفكر في المصيبة التي ستلاقيها . والوكسة التي ابتليت بها . ذلك الرجل الذي أهدته لهـا أم زوجة أخيها ، فكاد يطير النوم من عينيها ، ويصد نفسها عن الطعام .. بل الحياة . اكتشفت عيوبه من اليوم الأول للزواج . لم يحاول أن يخفيها حتى تظهر تدريجياً بعد مرور فتـرة طويلة . اكتشفتها مرة واحدة . مفلس .. متلاف .. جـائع .. مدخن للسجائر .. شره . كان يبدو في زمن الخطبة القصير ملاك هبط من السماء في يده غصن زيتون ، ثم اتضح أنـه شيطان يرتكب ما يحلـو لـه دون وازع . لا تفـارق يـده السيجارة ، بل تكاد تجزم أنه يدخن الحشيش أيضـاً . ولـم يمض يوم على زواجهما حتى ركع بين يديها وطلب منها أن تعطيه شبكتها حتى يمكن أن يسدد ما عليه من ديون . أجـاد التمثيل حتى كادت دموعها تطفر من عينيها . قالت لـه إن أهلها سوف يرفضون هذا التصرف . قال : ومن سوف يبلغ أهلك بذلك . والآن جاءوا ولا بد أن تخـرج مزينـة بهـذه الشبكة الملعونة .. المفقودة .

احتضنها أخوها وقبلها في جبينها . وقال لهـا : عينـي باردة عليك . وتعوذ بالله لأنه يعرف أن عينيه حسـودان . يجزم زملاؤه بالمصرف الذي يعمل به أنهما يفلقان الحجر . أمسك بيدها فوجد معصمها خالياً من شبكتها . قال يسـألها : أين شبكتك ؟ ..قالت : بالداخل . أمن اللازم أن أضعها فـي معصمي ؟ .. قال والغضب يطل من عينيه : نعم .. لازم .. حتى تتباهى بها بين أخواتك .

كانت الأم قد تخلفت عن الحضور بسبب بعد المشوار بين سكنها وسكن ابنتها الجديد . كما تخلفت أيضاً الأخت الأخرى تلك التي كانت تشاركها العنوسة وأصبحت ربتها الوحيدة في العائلة . فسرت الأختان ذلك المسلك بأنـه غيـرة مسـتترة واعتراض ظاهر لأن الأخت التي تصغرها تزوجت قبلهـا . ولو أن الأمر بدا لا يعنيها من اليوم الأول .

أمرها أخوها غاضباً :

- أذهبي .. ضعيها في معصمك .

عند الباب ، رأت أن تحطم القيد الذي وضعته حول لسانها ، فقالت : لا يمكن أن أضعها في معصمي يا أخي ..

- وما السبب ؟

- ذلك لأن زوجي باعها .. بالأمس .. كانت عليه ديون فباعها ليسدد ديونه ..

ألتفت الأخ إلى الزوج .. ووجهه الأسمر تحول إلى وجه في صفرة الموت . وقال :

- هل هذا تصرف رجال يا أستاذ ؟ ..

قال وهو يضبط أعصابه وينطق في برود :

- مضطر ..

نظر الأخ إلى أخته وقال لها باستغراب :

- كيف تسمحين أنت له بالتصرف في أملاكك هكذا ؟ ..

دون أن تدري قالت مرتجفة :

- وما في ذلك يا أخي .. أليس زوجي ؟ ..

تنطلق بصقة من شفتيه . ويغادر الحجرة منصرفاً خارج الشقة . مضت في أثره زوجه تحـاول أن تهدئـه . كانـت تعرف أنها لو انتظرت لحظة ولم تغـادر الشـقة بصـحبته فسوف توجه رصاصات الغضب إلى قلبها بدلاً من أخته ..

(١٢)
الكتمان

نهشت الغيرة قلبه مرتين . المرة الأولى لم تكـن بـالقوة التي تدفعه لعمل شيء . فقد ألتحق أخو زوجته الضابط بكلية التجارة بجامعة القاهرة . انتهز الفرصـة أن هيئـة الجـيش وافقت للضباط على الانتساب فانتسب . وأغتاظ كثيراً . إنـه يصغره بسنتين ، ولا يعقل أن يكون هو الكبير ولا حظ لـه من التعليم إلا معهداً عالياً . وهـذا الضـابط يصـير معـه شهادتان : دبلوم العلوم العسكرية وبكالوريوس التجارة . غير أنه حاول أن ينسي . كان البيت قد ازدحم بالأطفال . وأصبح بكاؤهم وصراخهم وشجارهم مضـرباً للأمثـال . ورثـوا الغضب من أبيهم ، فصارت معاملاتهم مليئة بالنفور . لـم تختلف فروع الشجرة الهائجة عن ذات الشجرة . كانوا أربعة يتشاحنون كما تتشاحن الديكة . وتحول من تلميذ إلى نـاظر مدرسة على أربعة من المشاغبين . وكـان كبيـرهم أشـد الأطفال صراخاً وغضباً وشجاراً .وعلى النقيض منه كـان التالي له . وقد اتخذ مسلك أمه في الخضوع والطاعة فأحبه أبواه . ولكنه كان لئيماً يقتنص حقه أو ينتقم بالحيلة . يقرص ولا يبدو عليه مظاهر القرص . أما الثالث فكـان لا يـزال يجري في البيت لم تُعرف طباعه بعد . وإن كان يثير الجلبة . والرابع كان لا يزال يحبو ، لكن ذلـك لا يمنـع أن يشـد الكبير لعبه فيصرخ .

لكن الغيرة عادت تنهش قلبه مرة أخرى حينما بلغـه أن أخت زوجته الصغرى التحقت - هـي الأخـرى - بكليـة التجارة . واصطنع شجاراً بينه وبين زوجته ، وصب عليها جام غضبه يومها ، كأنما هي المسئولة عن تقدم أختها فـي دراستها ونجاحها والتحاقها بالجامعة .

قال يوماً لزوجه :

- سوف استذكر الثانوية العامة .

- ألا تصلح شهادة المعهد العالي فـي دخـول الجامعـة منتسباً .

- لا .. لا تصلح .. كل ما أريده الآن أن تـوفري لـي الجو المناسب للدراسة . لا صراخ أولاد . ولا شجار . ولا مشاكل مع أحد .

- وكيف أضمن ذلك ؟ ..

- أقفلي عليهم حجرة أمي وأختي .. ودعـيهم يخلـدون للصمت .

- سأحاول .

لكن فكرة واتتها في الحال فقد كـان ذكاؤهـا متوقـداً . وكانت الفكرة تتبلور في قيادة الأطفال إلـى بيـت أمهـا .. وهناك يلعبون ويمرحون دون أن يمنعهم أحد . وتهرب مـن مشاكل ذلك الزوج الغضوب وعصبيته . وتترك لـه البيـت صامتاً حتى يستوعب دروسه . إنها فرصة لا تعـوض أن تهرب من البيت هذا الهروب المشروع .

وبدأ يدرس الثانوية العامة في تكتم . وأكد عليها أن تتكتم الخبر لأن عيون الناس سوف تنهشه حسداً . وأكثـرت مـن زيارة أمها والاستمتاع بها . والغريب أن أصحاب الضـجة والمعاكسات والمشاجرات يتحولون في بيت الجدة إلى أبنـاء للصمت والسكون . كانوا إذا دخلـوا بيـت جـدتهم ، تلـثم وجوههم ، ويبحثون عنهم بعد ذلك فـلا يجـدونهم . كـانوا يلجأون إلى أسفل الأسرة يختبئون تحتها من الوجوه . وكـان الابن المطيع يخرج بعد قليل في أدب ويجلس بجانب جدتـه وخالته . وأمه تدعو له بالكمال والرقة والفضـيلة . ويبقـي الآخران تحت السرير يتنفسان في ضـيق والعـرق يسـيل منهما . والطفل الصغير نائم في وداعة في حجر أمه .

كانت الخالة تترك كل واجباتها الجامعية ، لتستقبل أختهـا الضيفة . تسمع حكاياتها المسلية . وكانت إذا روت حكايـة مما يحدث بينها وبين حماتها وأخوات زوجها تفـيض فيهـا وتكرر وتعيد .. ولا تشعر الضيفة أنها عطلتها عن مذاكرتها ، لأن الهدف - كل الهدف - هو فتح أبواب الراحـة أمـام زوجها المستذكر الدءوب .

حينما تدنو الساعة من الثامنة تصيح الأم قائلة : سـوف أعود إلى البيت .. من يريد أن يبقى فليبق . ومن يريـد أن يأتي معي فليأت . أظهر وبان عليك الأمان يا ملك الجـان . ولا تدري كيف يكونون في شقتها العامرة صنفاً من الجـن ، ولدى أمها ودعاء كالملائكة . كأنه ازدواج الشخصية حالـة

أبيهم المزمنة . .. غضوب وحنون .. خير وشرير ..أهـوج ومتزن ..

ويطل الكبير من تحت السرير ليتأكـد أن أمـه تتأهـب للرحيل . ويطاول الآخر برأسـه حتـى يراهـا تسـتعد . ويخرجان معها ليلحقا بها . وفي يدها الولد الرضيع . وفـي اليد الأخرى الولد المطيع .

وتسألها أمها وهي تخرج :

- في المرة الثانية حينما تـأتين تعـالي أنـت والأولاد وزوجك .. مضى وقت طويل لم نره .

- بإذن الله يا ماما .. الحقيقة أنه يعمل أعمالاً إضافية . لذلك يتخلف عن الحضور .

كانت أوامره بالكتمان قد صدرت إليها فقامـت بتنفيـذها على خير وجه . ولم تذكر على سبيل الخطـأ أنـه متفـرغ لدراسة الثانوية العامة . وأنها تفرغ البيت من الأشقياء حتى يتهيأ له الجو المناسب .

ولم تكن قد صرحت بعد بما يفعله بها في بعض الأحيان . وما يلحقها منه من إهانات وطعنات . كانـت تفضـل جحيم ذلك الزوج على جحيم امرأة مطلقة تلوذ ببيـت أبيهـا القاسي . وماذا يكون وضعها وهي مطلقـة ومعهـا أربعـة أطفال . سوف ينغص عليها أبوها عيشتها لو استمرت فـي بيته .

ويدخل الأطفال إلى البيت وهم عائدون علـى أطـراف أصابعهم . يخشون بطش أبيهم . ويتسللون إلى حجرتهم في

أدب . ويخلعون ثيابهم في همس . ولم يكن بـالحجرة غيـر جدتهم العجوز .. تتناوم . ونادراً ما كانت تلتقي بابنها رغم قرب المسافة ، فقد كان يقفل عليه باب حجرته ، وينهل من الكتب . والأم راقدة في فراشها وقد أقعدتها السمنة وأوقفـت حركتها . وأخته التي لا تفارق بيته تكون قد غادرت البيـت إلى بيت أختها في شبرا. وهى أرملة ذات ولد تسكن في شقة واسعة مبنية على الطراز القديم . مات زوجهـا فجـأة دون مقدمات . مرض وهو يمثل فيلمـاً سـينمائياً وودع الحيـاة فجأة .

ينام الأولاد بسرعة . وتدخل عليه حجرته فلا ينتبه وتخلع ثيابها وترتدي ثياب النوم . تتأمله وهو منكب علـى كتبـه . إرادته حديدية . سوف يحصل على الثانوية العامة وسـوف يتوجه إلى الجامعة بإذن الله . لكنه يخشى عيون النـاس أن تدب رصاصاتها في مستقبله فينهار حلمه ، لذلك يقضي أمره في كتمان تام . تسأله بهمس :

- هل أعد لك العشاء ؟ ..

فيجفل وهو يتساءل : متى دخلت الحجرة .. لم أحس بك ؟ .

(١٣)
الطلاق

يعقد دائماً المقارنات بينه وبين الآخرين ، ويخص غالبـاً أخا زوجته . إنه وحيد مثله ، ولكنهما يختلفان فـي أن لـه خمس أخوات . أما الآخر فلديه ثلاث أخوات . هو تحطـم مستقبله حينما حصل على دبلوم التجارة .. كيف تحطم وأنت وصلت إلى وظيفة عالية ؟ .. أخو زوجته ارتفع وبدا مستقبله مشرقاً حينما اصبح ضابطاً بالقوات المسـلحة المصـرية .. ولكنه نُفى إلى العريش .

حقاً تمكنت أن تحصل على دبلوم المعهد العالي التجـاري وزاد مستقبلك إشراقاً . وها هو يحـاول أن يحصـل علـى بكالوريوس التجارة . أنت الآخر تقدمت في نفـس الطريـق ولو أنك قذفت بنفسك في دوامة المشقة بين عمـل صـباحي منهك ودراسة مسائية لا تختلف عن العمل . أنت مطحـون والآخر مرفه .. يعمل الآن في العريش ومرتبه يزيد علـى مرتبك أضعافاً .

ألا تكف عن حسد الناس والحقد عليهم . إنك تملك صفتين خسيستين تملكاك . أصبحت أسيراً لهما . لقد تعدلت حالـك الآن واصبح راتبك لا بأس به ولكن لا تزال تحسد وتحقـد . لا تزال شجرتا الحقد والحسد نائمتين في صـدرك . تهتـز أوراقهما من حين لآخر . فتنمل جسدك كله بتموجاتها . ولا فكاك لك منهما .

لا يعرف لم كره أخا زوجته . أيكون السبب راجعاً إلـى أنه رفض أن يزوجه أخته . كان معترضاً على راتبه ، لكن أباها أقنعه أن أخته ليس لديها شهادات عالية حتى تستعلي .. إنها حصلت على دبلوم الفنون الترزيـة .. وهـى شـهادة متوسطة مثل شهادة العريس . لعل الكراهية ترجع إلى أنـه اعتقد أنه يتكبر عليه .

سخر منه حينما عرف أنه يحب فتاة جاهلة .. لا تعـرف سوى القراءة والكتابة . ليس لها حظ من الثقافة .. وانـدهش أن يعشقها إلى هذه الدرجة . ويفاتح أباه في الزواج منها غير أن أباه يؤنبه ويطلب منه أن يصرف النظر عن هذه الزيجة . كان الأب يعرف أمها وألاعيبها وأسلوب حياتها المنحـرف فأوصاه أن يتباعد . لكن الأم كانت تعرف أن الضابط قد تدله ولهاً بابنتها ، فبدأت تنشر الشباك حوله لاصطياده . كانـت امرأة ماكرة تمكنت أن تتمم مراسيم الزواج ووضـعت أبـاه وأمه أمام الأمر الواقع . وعاش شهر عسل طويل في بيتها . لم يفكر أن يستأجر شقة إنما أكتفي بحجرة نوم جديـدة فـي الشقة الفسيحة التي تستأجرها أمها . لم يكن أبـو العـروس شخصاً يذكر في البيت . كان أشبه بالدمية تحركها الأم كيفما تشاء .

شمت فيه حينما لاحت فضيحة تخص والـد العـروس . كانت أمها قد خططت له أن يختلس بعض الأمـوال . كـان صرافاً في إحدى المصالح الحكومية ، فأوحت له أن يسـرق خزانتها ، ويدعي أن آخر سطا عليها ، لكنه لـم يـتمكن أن

يثبت ذلك أمام النيابة العامة فلصقت بـه التهمـة . حينمـا داهمت الشرطة المنزل لتفتيش كل الحجرات حتـى حجـرة الضابط العريس . لم تجد أثراً للمال .. غير أن القاضي لـم يكن ليهتم بذلك . لا أهمية في اكتشاف مخبأ الأموال المنهوبة أو الأموال ذاتها . كان يكفي القاضي أن الرجـل بـدد عهدته وأضاعها فنطق بالحكم .

لم يطق الضابط هذه الفضيحة ، فآثر أن يطلق المرأة التي أحبها . رغم أن أحشاءها كانت قد تكورت تنبئ بطفل قـادم إلى الحياة . تضرعت إليه كثيراً أن يردها غير انـه أصـر على موقفه . كان لا يمكنه أن يقبل أن يكون والـد زوجتـه لصاً .

دخلت على أمها يوم الطلاق ، وهي تبكي وتنتحب . غير أن الأم قالت بهدوء كأنما تسحب سكيناً حاداً تذبح بـه شـاة سلطته على رأسها وبدأت تذبح بتوءدة :

- اسمعي حينما تنجبين طفلك .. خذيه إلى أمه .. وألقيـه إليها . وتعال .. سوف أزوجك سيد سيده .

وفعلاً لم تتورع الفتاة أن تحمل طفلتها وتضعها في حجر حماتها . وتعود باكية إلى أمها . وحينما عاد من العريش في إحدى زياراته سأل : لمن تكون هذه الطفلة ؟ .. قالت أمـه دامعة العينين : إنها ابنتك . ضمها إليه وقبلها وقال : فعلـت خيراً أن أحضرتها . لم أكن لأرضى أن تعيش مع بنت لص .

لا يزال يحسده على قوة أعصـابه وهـدوئها . واتخـاذه القرارات بفورية وقوة . إذ عندما يتحرش بزوجته وكثيراً ما يتحرش لأسباب لا يدريها . وتقول له : لو كنت رجلاً طلقني . كان يتراجع ويتذكر الطفلة التي تعيش مع جدتها . ويقـول لنفسه : لا أملك قوة ذلك الرجل . وكان يقول لزوجه وهـو يبتسم :

- لا .. أنا عيل .

(١٤)

الحادث

الحادث أثار الذعر في قلبه . رفض يومها أن يذهب إلى المصرف . حينما سمع ليلاً أن شيخهم المفضل قد تم القبض عليه . دخل بيته ، وقفل حجرته . وانتظر أن يأتي المرسال للقبض عليه . هو هالك لا محالة .. كم يكره تلك الثورة التي توحدت معهم في البداية حتى اشتد عودها ثم أدارت لهم ظهر المجن .

دخلت عليه زوجه قلقة ، وهى تراه قد قفل أبواب الحجرة ، وأطفأ نورها ، وجلس وقد تعمق الاكتئـاب فـي وجهـه وارتسم في عينيه . كانت تحمل طفلها الصغير الذي لم يتعد عامه الثاني وسألته : ماذا بك ؟ .. قال بصوت واهن كأنـه فحيح : أنا هالـك لا محالـة . سـألت مستفسـرة : ومـا السبب ؟ . قال منزعجاً : إنهم يقبضون على إخواننا واحـداً بعد الآخر . وقالت : وكيف سيعرفون أنك مـنهم . قـال :

أليس هناك سجلات عضوية وأنا أسدد الاشتراكات أولاً بأول .

نهضت وهي تهدهد طفلها . وقالت : سأذهب إلى زيارة آمي . غضب ولكنه كتم غضبه وهو يتساءل : أفي هذا الوقت .. أفي هذا الظرف ؟ .. قالت بإصرار : ستفهم فيما بعد .

وعادت من عند أمها مستبشرة . وقال لها : أتحسين بي وأنا في الظرف المقيت وتبدين مسرورة وتطيرين من الفرح .

قالت بثقة : لقد التقيت اليوم بأخي وحكيت له قصتك . فوعدني خيراً . وعدني أن يحذف اسمك من سجلات العضوية ولن يمسسك ضرر .

قال مستغرباً : أليس أخوك يعمل في العريش ما هي علاقته بالأمر ؟ ..

قالت : معلوماتك متخلفة . ألا تعرف أنه نُقل إلى القاهرة في منصب خطير له صلة بهذه الأعمال .

سكت . لا يصدق أن ذلك الرجل سوف يبر بوعده . لقد كان يغير منه . وتحولت الغيرة إلى كراهية ولا يحاول أن يخفي هذه الكراهية ، بل يعلنها على أخته كثيراً بغضب وغيظ . وتأخذ منه إعلانه وتخفيه في صدرها وتحاول أن تخفيه عن أهلها .

ارتدى ملابسه في اليوم التالي ، ودخل المصرف ثابت الخطى ، يمشي مرحاً . وانتظر أن يتم القبض عليه مع

زمرة المقبوض عليهم . غير أن أحداً لم يأت ليفاجئه . أمـن المعقول أن هذا الضابط الضعيف له هذه الصولة والجولـة . أمن المعقول أنه وصل إلى هذا المنصب الخطير الذي ذكرته أخته . لا أصدق أن بإمكانه أن يمحو اسمي من السـجلات . لكن هنا في المصرف يعرفون انتمـاءك إلـى الجماعـة . ويعرفون قولتك المشهورة : اثنـان أهـتم بهمـا الأخـوان والنسوان . قد لا يأتون إليك في المصرف . قد يذهبون إليك في البيت .

استيقظ في الفجر ليؤدي الصلاة . إن زوار الفجر يـأتون في ذلك الوقت . كان يصلي وهو يتسمع دق أحـدهم علـى البيت بشدة . فيفزع الطفل الصغير . وتمتلـئ عيـون أمـه وأخته وزوجه بالرعب . لكنه اسـتكمل الصـلاة بإخبـات وبهدوء . إنه لم يفعل شيئاً يخاف منه . إنه رجل مؤمن بالله ورسوله ما ذنبه إذا كان الآخرون قد انحرفوا. أيقبضون على رجل يقول ربي الله . وفتح النافذة وخـرج إلـى الشـرفة ، وتطلع إلى الشارع الهادئ . من يصـدق أن هـذا الشـارع الساكن في الليل تغشاه الحركة في النهار ويملؤه الضـجيج .. ولم يجد إلا سيارة تجر صندوقها . لم يجد غيـر عربـة القمامة تمرق إلى الحارة المجاورة وتختفي فيها .

هل من المعقول أن يكون قد أسدى ذلك الرجل المتكبـر هذه الخدمة وأعتقه من الاعتقال وهو يعرف أنه يكرهه ؟ .. قد يكون ذلك من أجل عيني زوجتك الخضراوين العـائمتين في العسل . لا من أجل عينيك السوداوين الحسودين . وراح

يساءل نفسه : كيف يقبضون على رجل مضطرب العواطف مختل العقل مثلي . ألم تقل أم زوجتي وزوجتـي وزملائـي ذلك حتى بت مقتنعاً به ، ولا أقدر أن أفك من أثر الجنون . لأني أسير في الحياة رغماً عني وأؤدي تصرفات اندم عليها فيما بعد ، لكن وقت اتخاذها لا أدري بشيء . تأكد أنه رجل مضطرب العواطف . كان ينادي بالحجاب ، وفقاً لتعـاليم الدين الحنيف . ولو أنه يتطلع إلى النساء ويحاول أن يشـاهد جمالهن . ويتودد إلى زميلاته في العمل ويضاحكهن ، رغم أنهن متزوجات . كان منتسباً إلى الأخوان المسلمين ، ونادي الشبان المسلمين ، وفي نفس الوقت انتسب إلى نادي الشـبان المسيحيين ، بل وصار عضواً في مدرسة روبير للـرقص . غير أن مداعباته للنساء كانت بريئة ، ولم تكن تصـل إلـى أعمق من السطح . ولكنه بعد أن تزوج لم يكف عـن هـذه المداعبات البريئة . نكتة .. ملاحظة .. تعليق .. ثم يكركـر من الضحك وتنبسط الفتاة منه . غير أنه كف عن الـرقص وتعلمه . واندمج في دراساته الدينية . لكن عصبيته لم تبرد . صار أكثر عنفاً .. وأشد لساناً .. ميالاً إلى الجدل الـذي لا ينتهي .

كان يصب عنفه على زوجته . ويمد جدله إلـى زملائـه الموظفين في المصرف . وحينما يروق وتنقشع الحالة عنـه يتقدم باعتذارات ساخنة لمن أغضبه . ويحـاول أن يتأسـف لخصمه عما كان عليه الجدل من حرارة . لقد انتسـب إلـى الأخوان المسلمين ، وصار يكتب المحاضرات ويقرأها على

المبتدئين . أما بعد حادثة المنشية فقـد كـف عـن ذلـك . وانطوى على نفسه كأنما أصابته هزيمة نكراء . جعلته لا يفيق من شروده . وحينما اطمأن أن الأمـور هـدأت ولـم يمسسه أحد ، عاد سيرته الأولى يحتـد ويعتـذر . يغضـب ويطلب الصفح . يمتاز بالحلم ثم ينفجر . عرف أنه متقلب ، وكل عائلته من المتقلبين .. لكن لا يعرف كيف يكون العلاج .. لقد تنبأ لنفسه انه سيحمل تقلبه معه حتى نهاية العمر .

يريد أن يتحرر من هذه التصرفات الهوجاء التي يأتي بها لكن لا يستطيع . ظن في نفسه أنه مجنون لكن ثبت بالفعـل أن ذكاءه حاد . ولعل ذلك ما يدفعه إلى حافة الجنون . يفقـد الحلم حينما يجد رأياً معارضاً لا يتقبل الحوار الهـادئ بـل يندمج في الحوار الصارخ . يقاطع محدثه كثيراً ولا يسمح له بمواصلة الرد عليه . يشعر أنه أهوج وفي بعـض الأحيـان يطري عليه الزملاء لشدة اتزانه . إنه لا يدري من يكـون ؟ .. ومتى يتحرر من هذه الحالة المقيتة لكن هكذا كُتب عليـه أن يسير في الحياة .

(١٥)
العلاوة

المتنفس الوحيد له في هذه الشقة الضـيقة هـو الشـرفة الصغيرة . تبدو كمنفذ للنسمة إلى جسم مهدود الحيـل . إن عمل المصارف ليس سهلاً . خاصة بعـد أن أُسـندت إليـه مسئوليات جديدة . شجعه رؤساؤه على تقلد المنصب الجديد مكافأة له على حصوله على بكالوريوس التجارة . قدروا لـه خبرته السابقة واصبح من رؤساء الأقسـام فـي المصـرف المرموقين . كان هناك سباق بينه وبين أخت زوجته .. وبينه وبين أخيها الكبير . فشلت الأولى فشلاً ذريعاً . وخرجت من حلبة السباق وحولت أوراقها إلى كلية أخرى . ولعل السبب في فشلها زواجها المبكر واهتمامها بواديها . أما الثاني فقـد سبقه بمراحل . خرج من الجيش إلى وظيفة مدنية مرموقة ثم سافر إلى أمريكا مبعوثاً للحصول على الدكتوراه على حساب الوظيفة الجديدة . شعر حينئذ أن حصـانه تـأخر كثيـراً . وجواد ذلك الأخ قد تقدم تقدماً سريعاً . لكنه لم ييـأس . لا أهمية أن تأتي الشهادة العالية جداً من أمريكـا . يمكـن أن يحصل عليها من مصـر .. أمامـه التسـجيل للماجسـتير والدكتوراه في جامعة القاهرة . ويدخل حلبة السباق من جديد وليعدو جواد الصهر في سباق يقع فيما وراء البحار . ويخب حصانه في سباق يحدث فيما وراء النهر . وكل واحد منهما بعيد عن الآخر .

إزاء الترقية الجديدة ، طالبته زوجته بهدية ثمينة . طالبته على استحياء وهي تتصنع المرح . وانتحى جانباً في الشرفة الصغيرة يفكر فيما يمكن أن يشتريه لهـا . لـديها المأكـل والملبس والمسكن . ولو أن المسكن خانق غير أنه يستر العائلة تماماً . ولم يكن أمامه غير أن يشتري لهـا سـواراً ذهبياً يتدلى منه اسمها أو آية كريمة أو هلالاً ذا فص أزرق أو عين زرقاء تقتل أشعتها الحسد في المهد . عدوه الوحيـد في الحياة . وعلى العموم فإن النساء يسـيل لعـابهن وراء الذهب .

كان قد عين لزوجه يوماً في الأسبوع لا يزور فيه أحـد وهو يوم الخميس ، وأنذرها ألا ترتبط بزيارة أو تنشغل بأحد حتى ولا بأولادها ، فذلك اليوم له .. له وحده . وقـد قبلـت ذلك . وكان يأخذها يتجولان معاً لرؤية المحلات . يـدخلان الحانوت بعد الحانوت . ويشاهدان المعروضات ويسألان عن أسعارها ولا يشتريان . الحجة لديهما أنهما يتعرفـان علـى الأثمان حتى إذا ما فكرا في الشراء يوماً لا يخدعهما أحد .

وفي ذلك اليوم اشترى لهما القلادة وفرحت بها . وكسـر الاستثناء وأخذها إلى بيت والديها . ليشاهدا هذه الهدية القيمة التي اشتراها لها . لم يكن معهما أولادهما فتضايقت حماتـه ضيقاً شديداً لأنها لم تر أحفادها منـذ مـدة طويلـة . قـال الرجل :

- إنهم يلعبون في نادي المصرف . وقد يمرون عليك في المساء .

وأشار إلى القلادة وهو يقول :

- ألا تشاهدين ما اشتريته لابنتك ؟ ..

قال حموه : مبروك يا ابنتي .

وقالت حماته : مبروك . ثم بينها وبين نفسها قالت : هذا ما جلبه الغراب لأمه . أو بالأحرى وليفته ! ..

وطفقوا يتكلمون في أمور كثيرة . وانضمت إليهم أختهـا الصغرى في المساء . وروت كيف تعذبت حتى تم نقلها من كلية التجارة إلى كلية الآداب . وكانت ترغـب فـي سـنة استثنائية غير أن المسئولين بالكلية الأولى رفضوا بإصـرار .. كأنما يريدون أن يشطبوا اسمها شطباً نهائيـاً .وبطريـق الخطأ صرحت الزوجة أن زوجها المصرفي قد تمت ترقيته بعد حصوله على بكالوريوس التجارة . تحركـت فـي فؤاده جيوش المقاومة .. مقاومة العيون الحاسـدة يظـن أن الناس يحسدونه على ما هو فيه . ولا يعرف أنه لم يصل إلى شيء . وقال ، وهو يحاول أن يستدر العطف ويستبعد الحسد :

- تصور يا عمي أن هذه الترقية خفضت المرتب .

استغرب الرجل وتساءل :

- كيف ؟ ..

- لقد نقلت من شريحة ضرائبية منخفضة .. لـم تكـن تستهلك شيئاً من المرتب إلى شـريحة ضـرائبية مرتفعـة استهلكت العلاوة . علاوة الترقية . وجارت على جزء آخـر من المرتب .

(١٦)

التصميم

لما امتلأ بيت أخيها بالأصوات العالية والشجار المستعر والخصومات المتتالية . وأخذ الأولاد الذكور يشد بعضهم بعضاً . قررت أن ترحل بأي ثمن . كانت في البداية تمكث لدي أختها الأرملة القاطنة في شبرا يوماً أو يومين . بيت واسع عريض من البيوت القديمة الثابتة . وقررت أن تفكر في إدارة مشروع من المشاريع الصغيرة . التقطت الفكرة أثناء اجتماع بعض الأهل والأصدقاء في بيت أختها . حينما أدلوا بدلوهم في المشاريع الرابحة .. مطعم للفول المدمس أو الفلافل .. مطعم لأي طعام تريده .. مصنع صغير للعب الأطفال .. مصنع لصناعة الإعلام الصغيرة واللعب الورقية .. تلك التي يعجب بها الطفل وينبهر كالطراطير والبايات وغيرها . ويصر على شرائها . وما أسرع ما يفسدها أو يمزقها ثم يعود يطالب بأخرى . ولا يحتاج الأمر إلا لقروش قليلة لا تضلع جيوب الأباء . المشروع لا يتطلب مالاً كثيراً ولا إلى عدد غفير من العاملات إنما يمكن عد العدد على أصابع اليد الواحدة .

استأجرت في الحال الشقة .. والإيجار كان سهلاً ميسوراً ورأس المال صغيراً متوفراً من مدخراتها . وبدأت العاملات يعملن في المصنع .. وهي تراقبهن .. وتخرج للاتفاق على الصفقات مع أصحاب المحلات الصغيرة .. في الموسكي والغورية ودرب سعادة وباب الخلق وشارع محمد علي .

وامتد نشاطها إلى العتبة والسيدة زينب وشارع عبد العزيـز .. واتفقت مع البعض على توريـد المنتجـات بالجملـة .. واتفقت مع البعض على توريد المنتجات بكميات صـغيرة .. لا أهمية .. المهم تصريف البضاعة المنتجة في الحال . إنما كان ما يلزم هو الاتفاق المبدئي ثم التصنيع ثم التوريد فـي المواعيد . كان تصميمها علـى إنجـاح المشـروع قويـاً . وصممت أيضاً على أن تغادر بيت أخيها إلى غير رجعـة . هاربة من الضجة والتوتر والقلق على المستقبل .

قال أخوها الغاضب دائماً :

- أين تذهبين ؟

كانت لا تختلف عنه في الإرادة الماضية . والتكتم عنـد أداء الأعمال والمشروعات . واتخاذ الأعمال سراً .. بعيـداً عن العيون .قالت :

- أذهب عند أبله .. في شبرا .
- لا .. أنت لا تذهبين .. لقد كنت هناك ولم أجدك .
- على العموم .. أنا كبيرة السن .. وراشدة .. وليس من حقك أن تحاسبني ..
- ما دمت تسكنين في بيتي فعلي أن أحاسبك .

اشتد بينهما الصوت العالي . وكان صوتها حنوناً دائمـاً فصار في أعلى مستوى له يخرج مذبوحاً . وكـان صـوته شديداً يرجف من يقف أمامه .. فأبكاها . وعزمت علـى أن تستقر لدى أختها الأرملة مهما كلفها الأمر . وحملت حقيبـة

ملابسها . وودعت أمها القعيدة بقبلات حارة ، وقالت بصوت مبحوح :

- سوف آتي من حين لآخر .. لأراك .

قالت ودموع حائرة في عينيها ، لا تدري أتسقط أم تستقر :

- أستتركيني وحدي مع هؤلاء العفاريت .

كان الأولاد الأربعة يراقبون عمتهم وهي ترتب حقيبتها في تأن . تتميز بهدوء الأعصاب . وتحاول أن تتباعد عن الثورة . هي النقيض الحي لأخيها المتقلب أو ذي الطباع المتقلبة . كان مشهوراً عنه أنه يثور ويغضب ويعود على ما كان عليه كأنه بحر يلعب به المد والجزر دون هوادة . وكان مشهوراً عنها برود أعصابها وتحكمها في تصرفاتها والتأني في كلامها كأنها نهر لا يلعب التيار بمائه ولا تقترب الرياح منه .

دخلت زوجة أخيها تثنيها عما تفعل .غير أنها قالت لها بامتعاض :

- لقد كان طفلاً وأنا شابة .. ألا يعرف أن فارق السن بيننا لا يبيح له أن يأمر وينهي .

قالت الزوجة بتأن :

- إنه خائف عليك .

قالت : لن يخاف على نفسي غير نفسي .

وكان الأخ يجلس في حجرته متوتراً . دائماً يصنع التوتر بيديه ويعيش في آلامه . يدخل نفسه في مواقف لا يرضاها

ولا يستطيع بعد ذلك أن يتراجع . كان يحدث نفسه أن ينهض ويعتذر لها بل ويقبل جبينها أسفاً . لقد كانت فيما مضى هي الصدر الحنون الذي شجعه على الدراسة وكانت تشتري لـه ما يحلو له من حلوى وترعاه وتغسل ثيابه وتنشرها لتجـف وترتبها . لقد أضأت له أصابعها العشر شـمعاً .. فهـل رد الجميل يكون بهذه الثورة ؟ .. إن أخته الأرملة أصرت لـه بسرها ولم يفاتحها في أنه يعرف .. ولم يهنئها علـى أنهـا خاضت غمار السوق وفتحت لها هذا المصـنع الصـغير .. كانت أخته الأرملة قد أوصته ألا يفشي سرها لأنها استأمنتها . كانت تريد أن تنتظر حتى ينجح المشروع وتعلن وجـوده على الملأ . فلم إذاً الغضب وهو يعرف كـل شـيء عـن خروجها في الصباح وعودتها في المساء . كأنه كان يحاول أن يجبرها على أن تذيع أسرارها ولا تخفيها عنه فأصـطنع هذا الشجار . أحجم عن القيام للاعتذار لها . إذا مـا مشـت فإن ذلك معناه أن ينقص البيت فرداً .. ويقـل المصـروف وتنخفض التكاليف .. فلتتكفل بنفسها من الآن فصـاعداً .. فقد ازداد الغلاء واصبح من اللازم أن يعتني كل فرد بنفسه .

لكنه لم يصبر كثيراً على التباعد . ذهب إلى أخته الأرملة . وانتظر هنالك طويلاً . وداعب ابنها مـداعبات طويلـة . نفحه حلوى وشيكولاته ونقوداً .. ورآها تدخل معتدة بنفسها : قصيرة القامة حقاً لكن ذلك لم يمنع الكبريـاء مـن إضـفاء الطول عليها . نهض ليصافحها وقالت له على الفور :

- أهلاً .. يا أخي العزيز ..

صافحها بقوة وهو يقول :
- جئت أدعوك لأن تعودي إلى بيتك .
قالت بتصميم :
- لا عليك . . لقد استأجرت شقة لأعيش فيها بمفردي .. وحدي ..

(١٧)
المتعة

مدينة أبي قير الطرف البعيد من الإسـكندرية .. كانـت مقصد العائلة . يرفهون فيها عن أنفسهم . يغسلون في بحرها همومهم ويتمتعون بلياليها الهانئة بعمق . كـان أول الغـزاة حماه . ثم امتنع عن السفر بعد ذلك . لعله وجد في المصيف مضيعة لكثير من المال . وكان ثاني الغزاة أخته الكبـرى . تأخذ زوجها وابنها وابنتها ويتجهون إلى مدينـة أبـي قيـر يقضون فيها شهراً ممتعاً يتعذر على أديـب وصـفه . ولـم تفارق أخته الكبرى المدينة بعد ذلك فقد كان بينهما عشق لا ينتهي . اكتشفت فيها وقفاً تابعاً لوزارة الأوقاف أهليـاً فـي جزء منه وخيرياً في الجزء الآخر . وربطـت بـين اسـم صاحب الوقف وبين اسم جدها الأكبر . غير أنها لم تسـتطع أن تثبت أن جدها هو صاحب الوقف . لكن لم تفقد الأمل أبداً . وظلت تناضل .. لكنها كانت تناطح طواحين الهواء .

وجاء هو ثالث الغزاة يقضي شهراً كل سنة . هناك يأخذ زوجته المطيعة وأولاده العفاريت لينهلوا من البحر والهـواء

والمتعة قليلة التكاليف . وكان الأولاد الأربعـة قـد تعلمـوا السباحة في نادي المصرف الذي يعمل به أبوهم . بل تعلموا هناك المصارعة ولعب كـرة القـدم . وكانـت الأم تضـع الشمسية على البحر تستظل بظلها . وهم يسـبحون داخـل الأعماق الآن يصطادون الجنـدوفلي . ويجمعـون القواقـع النادرة . ويغوصون في الأغوار . ويبلغون جزيرة نيلسـون ويعودون .. أحياناً يذهبون إلى الشاطئ ذي الأمواج الهادرة .. وأحياناً يمضون وقتهم في ماء البحر الميت الخـالي مـن الأمواج .. ينامون ساعة القيلولة . وفي المساء يلعبون مـع أحفاد صاحب الحجرات التي اسـتأجروها منـه . وكانـت أعمارهم متقاربة . وكثيراً ما كان يأخذ زوجته لقضاء بعض الوقت في الإسكندرية . وأولاده رجال لا يخاف عليهم . وكل واحد منهم له أصدقاء من أبي قير لأن لكـل واحـد مـنهم مشارب مختلفة عن الآخر .

كان يذهب لزيارة عديله .. له شـقة دائمـة فـي رمـل الإسكندرية . أستأجرها في طريق الجيش . تعانق البحـر . يكاد الجالس في إحدى شرفها يظن أنه جـالس فـي المـاء الأزرق ذاته . يحب ذلك العديل ، فهو رجل مرح ، يميل إلى القفشات اللطيفة . يعمل مهندساً في إحدى شـركات الغـزل القريبة من كفر الدوار ، يسكن في مساكن الشركة ، ولكنـه اتخذ هذه الشقة مصيفاً له . يأتيها في أي يوم من أيام العام .. كان الوحيد من العائلة الذي يأنس له ، فأخو زوجته متعـال فبادله التعالي . وحموه لا يطيق أن يسمع أنه مـس زوجتـه

بسوء ، ولو أنه كان يرى أن من حقه أن يؤدبها . وحماتـه كان قد بلغها قسوته وأحداثها التي لا تنتهي فأطلقت دعواتها عليه . ولما بلغته الدعوات من زوجته حاول أن يقلـل مـن زياراته لحميه وحماته تفادياً لنظراتهما الملتهبة .

كانت أخت زوجته - امرأة ذلك العديل - سيدة كريمـة . ما تكاد تقدم التحية للضيوف حتى تتبعها بأخرى ثم أخري . حتى يقسم بشدة أنه لن يتناول شيئاً . وعند العودة في سـاعة متأخرة من الليل . يجدان الأولاد لا يزالون يلعبـون مـع أقرانهم .ولا يزال صاحب الحجرات جالساً علـى كرسـي خشبي بجانبه زوجته العجوز . كانا عجوزين امتـد بهمـا العمر وانجبا ابناً وابنتين . الابن لا يزال يعيش في كنف أبيه . والابنة الكبرى تزوجت وعاشت أيضاً في كنفـه وأحفـاده يحيطون بهما من كل جانب . أما الابنة الصـغرى فتسـكن القاهرة وتأتي في نهاية الصيف ، تتمتع بمدينتها القديمة هي وبناتها . وقد كان عدد الأحفاد يزيد كل عام وشقاوتهم تزداد ضراوة لكن العجوزين كانا كأنهما في واد بعيد عن الضـجة والصراخ والصياح . كانا كأنهما أصمان .

مال الشيخ عليه وقال له :

- في العام القادم بإذن الله .. ضـع فـي اعتبـارك أن الإيجار سوف يزيد إلى الضعف .

بدا عليه الغضب كأنما يكتمه . وقال :

- أهذا كلام يا عمي .. نحن زبائنك منذ سنوات .

قال: - الأسعار يا ولدي ترتفع والمطالب تزداد . فماذا تراني أفعل ؟

- أنت بهذه الطريقة تحرم هؤلاء الصبية من متعة البحر والهواء .

- أنا .. ما بيدي أنا ؟ ..

(١٨)

الكتيبة

تأتي غالباً حينما تتعذر المودة بينها وبين زوجها . تقـود أولادها ككتيبة عسكرية إلى بيت أخيها . وترزح علـى كاهله زهاء أسبوعين . وأحياناً يكون ميعاد استقرارها فـي أواخر الشهر . ويكتظ البيت في ذلك الوقت بالسكان . ويبدو جزيرة تناسل سكانها حتى أصبحت غير قادرة على الترحيب بقدومهم . فأولادها بلغوا خمسة وأولاد أخيها بلغوا أربعـة . وهناك زوجته وأمه فضلاً عنها وعن أخيها .

عادة فيها لم ترثها ، يعاودها الاكتئاب ، ويصاحبها النوم الأثير ، وتترك أولادها كزوج أخيها يعارك الواحـد مـنهم الآخر . وكانوا مجموعة من الأشقياء . يصيحون ويصرخون ويتضاربون ويشكو أحدهما الآخر لجدته فـإن لـم تنفـع ، فلزوجة خالهم فإن لم تنفع يثأر الواحد منهم من الآخـر . أو يتعاركون مع أبناء خالهم . وهؤلاء الأبناء يرومون الصمت والسكون والدعة . يريدون أن يسـتوعبوا دروسـهم . أمـا الآخرون فقد خاصموا العلم والتعلم . وذاقوا مـرارة الفشـل أكثر من مرة في سلك التعليم .

وإذا ما دخل خالهم أخلدوا إلى الصمت . وظهروا بمظهر الوديعين الحزانى على مصيرهم ومصير أمهم . بداية كـان الخال يخشى أن يدعوها لتعود إلى زوجها .. حتى لا تنفجر في البكاء أمام أمها المقعدة . وتقول لها : أخي لا يتحملنـي أنا وأولادي . هل أعود لرجل طردني ؟ ..

لذلك لم يكن يبقي كثيراً في البيت . ويأخذ أولاده معه إلى نادي المصرف يستذكرون هناك ويلعبون . ويترك أولادهـا بحجة أن النادي لا يسمح للغرباء بدخوله . وتبقى الزوجـة تراقب حالة البيت خشية أن يفسد الأشقياء شيئاً منه .

إذا ما استيقظت صدفة تسأل عن أخيها . تقول أمها لها : ذهب إلى النادي . تنفجر قائلة : ألن يجد لمشكلتي حلاً ؟ .. تقول أمها ببساطة : مشكلتك لا حل لها . زوجـك مـتلاف يبعثر مرتبه على السجائر وما خفي كان أعظـم . والفتـات التي يعطيك إياها لا تتمكنين أن تصوني بها حركة القـارب فينقلب بك ويغرق . ولولا لطف الله لكنت قد غرقـت مـع القارب أنت وأولادك . وتسأل مكررة : معني ذلك أنـه لا يوجد حل مع هذا الرجل ؟ .. ثم تسكت وتعود تتكلم : إنـه سوف يؤدي بي إلى الجنون . تقول الأم مبتسمة : سـوف يؤدي .. قولي لقد أدي بك . تقول متسائلة : ألن يذهب معي حتى بيتي وهناك يتفاهم معه . تقول الأم بثقة : أنت تعرفين أنه لا يطيق زوجك . وإذا رآه لا يصافحه . وسبق أن نبـه عليه أنه لا يريد رؤيته ، فكيف يقابله ويتفاهم معه في أمرك . حاولي يا ابنتي أن تحلي مشاكلك بيدك لا بيد غيرك .

وما تكاد تنتهي من كلماتها ، حتى تجدها قد عادت إلـى النـوم . وأولادهـا يصـرخون فـي الخـارج يتعـاركون ويتصايحون . فتقول : هذا ما أنت فالحة فيه .

تمر الأيام بثقل غريب حتى إذا مـا دخـل أول الشـهر تحصل على ما يجود بها أخوها . وهو يقول لها :

- خذي هذا وعودي إلى بيتك .. إن بيتك أولى بك . ربما إذا بعدت عنه أكثر من شهر يتزوج من أخرى ولا تستطيعين أن تعودي إليه .

تنهض وقد دب في قدميها نشاط عجيب . وهي تقول :

- أتقول الحق ؟ ..

-كل الحق .

- إذاً يا أمي دعيني أذهب لربما تزوج علي أخرى .

وترد الأم : على بركة الله . وتلملم ملابـس أولادهـا ، وتعود الكتيبة العسكرية مرة أخري إلى مقرهـا الـرئيس . كانت المسافة بين عائلتها وبيتها في الماضي قريبـة ، لكـن حينما نُقل زوجها إلى مطار بلبيس ، أصبحت المسافة بعيـدة وشاقة . كانت غضبتها تحدث من زوجها كل شهر تقريبـاً . لكن حينما تباعدت المسافة أصبحت لا تجـد ثمـن تـذاكر الركوب فصارت تغضب كل ستة شهور أو أكثر .

وفي مرة من المرات . دخلت بأولادها الخمسة والـدموع تسبقها ، وتتساقط على الأرض . جاءت تشكو معاملة زوجها لأخيها . وكان قد اتجه إلى حجرته ليأخذ راحته فـي وقـت

القيلولة .. فدخل حجرته وأخرج مبلغاً من المال من جيبـه . وعاد إليها ودفعه في جيبها وهو يقول :

- عودي بأولادك إلى زوجك .. أخشى أن يتزوج عليـك وتندمين .

- أمعقول أن يتزوج على ..

- نعم .. الرجل لا يهمه لا أولاد ولا بنات ..

- إذاً .. استريح قليلاً وأعود ..

تقبض على النقود وهي حريصة عليها وهو يقول :

- تعودين اليوم ..

- اليوم ! .. اليوم يا أخي ..

وقبل الغروب كانت تركب السيارة العامـة إلـى بلبـيس ومعها صغارها . وهكذا اصبح أخوها يدخر هبة مالية لهـا في البيت ، ينفحها إياها ، كلما جاءت بكتيبتها إلى البيـت . وسرعان ما تتبخر هي وأنجالها .

(١٩)
الفجوة

حقاً بلادنا نائمة ، راح يحدث نفسه ، وهو يجلـس فـي الإدارة الجديدة .. إدارة التنظيم . كانت زوجته منـذ قليـل طلبته بالهاتف . وزفت إليه النبأ الجديد . إن أخاها عاد مـن أمريكا . في يده اليمنى شهادة الدكتوراه . وفي يده اليسـرى عروس أمريكية جديدة . أما هو فقد مشى مع نظـم التعلـيم البطيئة . ولم يحصل على الماجستير . قام بتجميع دبلومات في شتى ألوان العلم الذي تخصص فيه . ولم تساعده واحـدة على اجتياز سبيل الماجستير إلى الدكتوراه . مضت سـنون ارتفع فيها نجم أخي الزوجة . أما كوكبه فقد أخـذ يـنكمش ويتضاءل حتى صار قمراً .. يا رجل أنت تتقلـد الآن أهـم منصب في المصرف ، ويطلبونك لإلقاء محاضـرات فـي المركز التدريبي . وتسافر إلى الخارج في رحـلات علميـة وعملية .. ماذا تريد ؟ .. ظروفك لم تسـاعدك أن تحصـل على الدكتوراه .. أو حتى الماجستير ، ولكن علمك لا يختلف عن أي ممن حصل على إحدى الشهادتين .

سأل زوجته حينما عاد :

- أين سيعمل ؟ ..
- ربما في وظيفته القديمة .
- لكن المرفق القديم معطل بسبب النكسة .
- ربما يعمل في الجامعة في الكلية التي تخرج منها ..

راح يحدث نفسه أنه لو عمل في الجامعة في هذه الكليـة .. فهي كليته التي درس فيها ويدرس فيها وينوي أن يسـجل فيها للماجستير . هل يقصده حتى يتوسط له عند أستاذه حتى يوافق على تسجيل رسالته ؟ .. إن وقته الثمـين اصـبح لا يساعده على أن يعثر على هذا الأستاذ . اصبح تقديم أوراق الماجستير أمراً عسيراً . اصبحا كأنهما يلعبان معاً لعبة القط والفأر . لن يطلب منه شيئاً كبيراً . إنها توصية بأن يتبنـاه الأستاذ علمياً . وليس أن يرثه . لكن من المعروف أن ذلـك الأخ لا يخدم أحداً . أمعقول ما يزال على طبعه حتى بعد أن كبر مقامه وصار نجماً واصبح يشار إليه بالبنان . لا أصدق . لا بد أنه تغير . إنني نفسـي تغيـرت . أصـبحت أكـره الغضب . وأحاول أن أضبط أعصابي . وأحاول أن أحب من كرهتهم ولا أكره من يترصدوني بالإيذاء ..

حينما تأكد فعلاً أنه صار أستاذاً بالكلية . وأنه على صلة وثيقة بأستاذه . قام بتجميع أوراقه ليقدمها إليه .. إلى الدكتور العائد لأرض الوطن . حذرته زوجته قائلة : إن أخـي لـن يخدمك . فلا تكلف نفسك مشقة السؤال . وأنا أعـرف أنـك عزيز النفس ذو كبرياء . تباعد عن وساطته حتى لا تغضب منه إذا لم يرضك .

- إنه لن يفعل شيئاً غير أن يطلب من أستاذي أن يوافـق على قبول طلب الماجستير . إجراء بسيط ليس فيـه مهانـة لأحد . وإذا لم يوافق الرجل فلا لوم عليه . أو فليحـدد لـي ميعاداً لأقابله . أنت تعرفين أن الوقت عندي غال ومتعـذر

علي أن أتصل بالأستاذ فلا بأس أن يقوم بـذلك بـدلاً منـي خاصة أن الأستاذ معه في الكلية .

- أسمع الكلام ولا تكن لحوحاً .

نظر إليها بعينيه السوداوين الغاضـبتين . فكفـت عـن الحديث معه . تعرف أنه غضوب مستبد إذا استقرت الفكرة برأسه تحجرت . وصارت ثقلاً يدفعه إلى أن ينفذها ، ولـو كان فيها إضرار وعواقب .

قابله مضطراً ، وكان يقابله في الماضي لماماً . ولم يزره منذ عودته إلا مرة واحدة . يوم هنأه بسلامة الوصول . وهذه هي المرة الثانية . زاره في شقته المفروشة في وسط المدينة . وكان قد اتخذها مقراً له حتى يجد شقة يستأجرها بـالقرب من الكلية .

لم يكنا عند اللقاء يتعانقان . فقد كان ما في القلـب فـي القلب . كانت بينهما فجوة كبيرة سقط فيها الحـب قتـيلاً . وصعد من الهوة شبح الحب بشع الشكل يتخفى فـي رداء لا يظهر بشاعته . منذ زمن بعيد يمتعض الواحد منهمـا مـن الآخر لكن اللسان لا ينطق بما في القلب . والعيون تحـاول تزييف لغة القلب تزييفاً محكماً .

أعطاه الأوراق وشرح له كيف أن الأعباء قد كبلته ، وأن الفرصة لم تسنح أبداً لأن يقابل الأستاذ وأنه يعتقد أنه يقابله . وما عليه إلا أن يطلع وإذا وافق يوقع على الخطة . وسوف يتكفل هو بالباقي . وعده خيراً . وتم إكرامه شاياً وحلوى و

.. و .. حتى أعتذر أخيراً بسبب الأمراض التـي اجتاحتـه وهو ما يزال في شرخ الشباب .

ترك أوراقه وديعة لديه ، فوضعها على مائدة في حجـرة الاستقبال . ونهض يودعه شاكراً له الزيارة . وما كاد يدخل حتى رن جرس الهاتف ، فأسرع يلتقط السماعة ، فـإذا بـه يسمع صوت صديق يسعى للبحث له عن شقة . يقول كأنـه ارشميدس : وجدتها .. وجدتها يا دكتور .

حزمت الحقائب والأربطة . ونُقلت إلى السكن الجديـد . وكان قد زينه الأثاث الجديد وتم ترتيبه فيها بأيدي فنية ماهرة . وظلت الأوراق موضوعة على مائدة صغيرة في حجـرة الاستقبال بالشقة المفروشة ولم يمسسها أحد .

(٢٠)
البركان

كان يجب أن يتوقع أن ابنه الكبير سوف يكون نسخة منه لكنه فوجئ . عصبي مثله لأتفه الأسباب . أنـاني يحـب أن يستأثر بكل شيء ويحرم أخوته . عدواني حينمـا يسـتفز لا يتورع عن المشاحنة والمشاجرة . كان يكره في نفسه هـذه الصفات فكرهها في ابنه . كان يخفف من حدة الكراهية ذلك الذكاء الفارط الذي يتسم به الولد . كان هو الآخر ذكياً ومـا يزال يتقد ذكاء ، لكنه نشأ في ظروف صعبة ، ربما شـكلت شخصيته النرجسية . بيد أن ابنه لم يصادف هذه الظروف ..

فكيف تشكلت لديه هذه الشخصية . ومادام هو قطب شـمالي والولد لا يختلف عنه فكان القطبان يتنافران .

غير أن الأم لم تكن على سلبيتها في هذا الصدد . كانـت تقف بجانب الولد . كانت في كل الأمور خاضعة لكن عنـد تربية ذلك الولد النبيه كانت نمرة تدافع عنه وتزود . وكانت المشاحنات بين الأب والأم توقفت ثم عادت تبزغ من جديـد بسبب ميلها إلى الدفاع عن الابن . كان الأب يريد أن يضعه في قالب يريده . قالب يحاول أن يفلت إليه لكن الولد الكبيـر كان يأبى ذلك . أخوه التالي له كان خضوعاً مستسلماً لأوامر أبيه فأحبه حباً جماً . غار الولد الكبير من أخيه غير أنه كتم الأمر في نفسه . وأخوه الأوسط كان ما يزال صـغيراً لـم تتشكل شخصيته بعد . وإن كان يبدو مهاوداً يسير في طريق غريب . أعماله لا تفسر بالخروج ولا بالدخول مـن بـاب الفضيلة . كان كأنما يقف على الحياد بين الرذيلة والفضيلة . أما الابن الرابع فكان متقد الذكاء مثل أخيه الكبير ، لكنـه يرتكب من الأفعال ما يعتبر مزحاً لا يلام عليه ، فكانت خفة دمه تشفع له رغم أنها لا تختلف كثيراً في تصـرفاته عـن تصرفات الكبير المتجهم . وهكذا كانت روحه المرحة تخفف كثيراً من وقع التصرفات . بينما الولد الكبير كـان جامـداً رزيناً منطوياً فكانت تصرفاته الجامحة محل انتقاد .

وهكذا انحصر الصراع بين الأب والابن الكبير . أو الابن الأول . ووجد الأب نفسه يقف في خندق في مواجهة خنـدق ذلك الابن . ولا يعرف كيف تطـور الأمـر فصـار الأب

يتطاول على الابن ، لكن في فترة من الفترات لم يعد الابن يقبل ذلك . كان قد فاق أباه طولاً وعرضاً وامـتلأ لحمـاً ، فصار ينظر إليه من عل . وتراجع الأب عن ضربه ولو أنه لم يتردد في توبيخه وسبه وشـتمه لأقـل هفـوة . يطالبـه بالتخفيف من عصبيته والحد من مشاجرة إخوانه . ومحاولة أن يبتعد عن الأثرة ويأخذ قليلاً بمظاهر الإيثار . لكن هـل ابتعد هو أو تخفف أو تباطئ في ارتكاب التصـرفات التـي تغيظ . أبداً . فكان التنافر واستمر طويلاً .

صار الأب يشكو ابنه لـدى حميـه وحماتـه . يطالبـه بتوصيته بالرضوخ والطاعة . والأم تقول :

- إنه ولد طيب . وذكي . وما يتخذه من تصرفات هي تصرفات عادية يأتي بها من في سنه . أنت تسـتفزه بلا سبب .

يحتد الأب أمام حميه وهو يرد :

- هذا ولد عاق . يتصرف حسب هـواه . وأرجـوك لا تدافعي عنه .

تخرج عن ضبط نفسها وتقول :

- لا تقل عنه ذلك . إنه ولد مؤدب وقد تمت تربيته على أحسن وجه . وسأدافع عنه إلى الأبد . أنت فقط لا تفهمـه . إنه في سن يحتاج فيها أن يكون مستقلاً . وأنـت تريـد أن تربطه بك .

عندما عادا إلى البيت ، عاتبها بشدة كما هي عادته دائما ، يشتد عند الغضب ، فرفضت ذلك الأسلوب . كأنمـا فـاض

الكيل ، فطفق ماء الغضب يتدفق منه . وكاد يمد يده عليها . غير أن الابن الكبير تدخل . امسك فقط بيده وهو يقول : لا داعي لذلك . وقف الأب محتاراً كيف يتصرف . أيضربه هو الآخر أم ينسحب . أيتخاذل وينزوي في حجرته . سـحب يده من يد الابن القوية . وقال لها وهو يفتح باب حجرته :

- أنت طالق .

فجر بركاناً لم يكن يدري أبداً أنه يفجره . كان مهما أطلق من كلمات يمتنع عن أن يطلق كلمة الطلاق . لا يدري كيف نطقها . كان يتحاشاها دائماً مهما كان غضبه . يتجنبها فـي أقسى أزماته .. ماذا حدث له ؟ .. لكنه انصاع وراء الكلمـة ولم يسحبها . . دخلت حجرة نومهما ولملمت ثيابهـا وهـو جالس على الفراش غير مبال . والأبناء مذهولون لا يدرون ماذا يفعلون . وقررت أن تترك البيت إلى بيـت أسـرتها . وراحت توصيهم قائلة : خذوا بالكم مـن أنفسـكم . كانـت الدموع في عيونهم ، وأجسادهم ترتعش . لا حول لهـم ولا قوة ، لا يستطيعون التدخل لأنهم يعرفون عاقبته .

لم يكن يدري أنه قذف بنفسه وسط البركان دون أن يشعر . انطلقت الحمم وألسنة اللهب والمواد المشتعلة تتكاثر عليه . وتغطيه . حتى صار جسده ينجرف مع كل يابس ساخن متقد مستعر من نيران البركان .

سمعها وهي تقول لأولادهـا : لا تتشـاجروا . وحبـوا بعضكم البعض . سأكون عند جدكم .. اتصلوا بي .

حاول الأولاد منعها لكن السيف الباتر كان قد فصل الجسد عن الجسد . واصبح الجسد طليقاً .

حاول أن يتناول طعامه بعد أن خرجت ، لكن الطعام كان أحجاراً تثير الغثيان . حاول أن يفكر تفكيراً سـليماً ، لكـن الغضب عطل كل الطرق المستوية وحفر حفراً عميقـة فـي السبل الممهدة فأصيب الفكر بالعرج . ولازمه الأرق حتـى الصباح . وقد شعر أنه سيلازمه فترة طويلة قد لا تنتهـي . وصار مضطرباً في عمله كأنما ضبط النفس خرج من جسده ولن يعود ..

نظر فجأة إلى زجاج نافذته ، فشعر فجأة أنه ترك ذقنـه دون حلاقة ، فنبتت غابة كثيفة في وجهـه .. يتنـاثر فيهـا الشعر الأبيض . قال لنفسه : شعر أبيض دون وقار .. ضيع إطلاق الكلمة الوقار . أين وقارك يا رجل ؟ .. وراح يـرد على نفسه مبرراً : هكذا الإنسان تنفجر في طريقه البـراكين فإذا لم تنفجر يفجرها ! ..

(٢١)
الفراشة

كيف يعمل وهو مشلول الفكر . أشل قواه العقلية بيـده . اندفع ولم يعرف عاقبة الاندفاع . الأرق والاضطراب والقلق في كل شيء . نقل الأولاد إليه صورة كاملة عن حياة أمهـم المطلقة . وأغاظته الصورة . قالوا إنها تنام ملء عينيهـا . تلك التي كانت تسـتيقظ قبـل الفجـر تعـد لهـم الفطـائر والمشروبات والمأكولات المختلفة حتـى إذا مـا التهموهـا غادروا البيت إلى المدارس مبكراً . الآن ليس وراءها واجب تفعله . والداها شيخان طاعنان في السن . يستمرآن النوم بعد صلاة الفجر .ويضجرهما من يحاول إيقاظهمـا قبـل الحادية عشرة . وإذا ما استيقظت استمعت قليلاً إلى المذياع تعرف منه أخبار العالم . كأنما كانت في سجن مغلق حينمـا كانت في بيته لا تسمع أخباراً رغم أن هناك مذياعاً تملكـه . ولا تشاهد صوراً تجري أمامها رغم أن التلفاز مفتوح أمامها . كانت كالنحلة في بيتها أما الآن فهي كالفراشة في بيت أبيها . النحلة تعمل أما الفراشة فتتجول وتتنزه . النحلـة شـغالة والفراشة ملكة . لا تفكر في رجلها الذي طلقهـا . ولا يـرد على بالها . هكذا قالت لأبنائها . لكن تحمـل هـم أولادهـا الأربعة . هل أكلوا .. هل شربوا.. هل استذكروا دروسـهم .. هل .. وهل .. كل فكرها محصور حولهم ولـو أنهـا لا تستطيع أن تفعل شيئاً من أجلهم .

ثم نقل الأولاد له خبراً طازجاً .. جعله يغلي . إن عديلـه - زوج أختها الصغرى- يحاول أن يجد لطليقتـه عمـلاً .. حتى تتكسب منه . إن لديها شهادة الفنون الترزية الثانويـة . ويمكن أن تعمل بها . ووجد لها فعلاً عملاً بـأجر مجـز . وسوف يذهبان معاً إلى مدير العمل ليختبرها . إنـه بحكـم منصبه له اتصالات واسعة بالشركات والمؤسسات . وبكلمة منه يمكن أن تعمل . غلى الدم في عروقه . سـوف تصـبح مستقلة . وسيكون لها دخل . وإذا طلب أن تعود إلى حياتهـا الزوجية قد ترفض . ستكون لها شخصية جديدة لها استقلالها وأموالها . وما المانع أن تكون لها أموالها واستقلالها ؟ .. آه .. أنت تريدها ضعيفة دائماً حتى تكون خضـوعاً طائعـة . تريدها منحنية معتمدة عليك . يا لك من رجل ! .. ألن تغير ما في نفسك أبداً ؟ .. ألن تطمس هذه الرغبة المسيطرة ؟ .. كان يظن أن الطلاق سوف يشقيها فإذا به يسمع أن الطـلاق حول حياتها إلى سعادة .. راحة .. هناء . كيف يسمح بذلك . أيشقي وحده .

لم يستطع أن يستكمل أعماله في المصـرف . قـرر أن يغادر الإدارة إلى شقة شقيقته الكبيرة .. ستقف إلـى جانبـه وتعمل على إعادتها إلى البيت . لن يتركها أبداً في هنائهـا ، وهو يتعذب . يجب أن يعمل عملاً قبل .. قبل أن تفلت إلـى الأبد .. لا بد أن يضمد الجرح ويداويه بـالمراهم قبـل أن يستفحل ، ويتحول إلى بؤرة صديدية . لقـد مزقـت كلمـة الطلاق العلاقات بينهما . وتركت ذلك الجـرح لكنـه لـيس

جرحاً غائراً . إنه لو طلبها أن تعود فسوف تعود إليه بحكـم الشرع . الطلقة الأولى رجعية .

فوجئت الأخت الكبيرة أن الطلاق وقع .. عاتبتـه عتابـاً شديداً . وأخذت تستعرض محاسن امرأته واحدة بعد واحدة . حتى كاد يطق من العتاب . إنه سكين تذبحه به وينبثق منـه الدم وتعود من جديد تذبحه وينبثق الـدم الثـاني . وانفجـر غاضباً :

- الآن أريد أن استرجعها .
- كيف ؟
- هذا حقي .
- إذاً فلم لا تذهب إلى أبيها وتلاطفه وتحايله .
- سوف تكونين معي .. أنت حمامة السلام .
- والله أنا أخشى على هذه المسكينة منك .
- لا تخشي شيئاً .. لقد تغيرت .

وقالت تتهمه في سرها . أنت لم تتغير ولن تتغير أبـداً ، من شب على شيء شاب عليه . العنف والغضب والعصـبية كلها أمور تجري في دمك .

استقبلهما الأب ممتعضاً . جئتم تأخذان ابنتي إلى الضـيم مرة أخرى . وقال له :

- أبعد شهرين تظهر .. لم يكن ذلك عشمي فيك .

قالت الأخت تنشر أريج السلام :

- لقد أدرك خطأه وندم .. أنت تعرف أن بينهمـا أولاداً .. ولولا هؤلاء الأولاد لما جئت معه .. وأنا جئت فقط لأنه أقسم أنه تغير .

قالت الأم بأسى :

- الحقيقة البنت لا تريد أن تعود ..

نظر الأب إلى زوجه ، وقال وهو يسعل :

- انتظري أنت ..

ثم التفت إليه :

- ماذا سيضمن لنا أنك لن تسيء معاملتها ثانية .

قال الرجل ، وهو يحاول أن يضبط أعصابه ، ويظهر بمظهر الضعيف التائب :

- إن ذلك كان عهداً انقضى .. ولسوف نبدأ عهداً جديدا ً.

تدخلت الحماة قائلة منفعلة :

- - إن ذلك لا يحدث أبداً . تقول ما لا تفعل .

قال الرجل : ثقي بي هذه المرة .

بغتة دخلت الزوجة المطلقة حاملة صينية عليهـا أكـواب قهوة . على شفتيها ابتسامة خجلى . وعيناها تقـولان كيـف تقررون مصيري وأنا بعيدة عنكم ! .. فوجئ الأب بدخولها لكنه أدرك أنها غفرت لزوجها ، فتخفف قليلاً من صرامته ، عرف أن الفراشة أرادت أن تتحول من جديد إلى نحلـة .. يبدو أن أوقات الراحة لا تدوم وحانت أوقات الشـقاء مـن جديد .

وراح الأب يقول :
- على العموم .. الأمر الأول والأخير لها .
قالت الأخت :
- نسألها ؟ ! ..
قال الرجل ضاحكاً :
- لنشرب شراباً حلواً في البداية .

(٢٢)
الذعر

كأنما أصيبوا بالذعر حينما حان موعـد دخـول الولـد البكري الثانوية العامة . منعوا الزيـارات وامتنعـوا عـن الزيارات . طالبت الأم باقي الأولاد للإخلاد للصمت . غير أن الذعر زاد النيران في الأسرة ، فتحول توتر الولد البكري إلى شرر ، ومس الشرر بقية الأسرة فالتسعت وزادت النار . ولم تكن الأسرة بحاجة إلى نار جديـدة تنشـغل بإطفائهـا . فالأب عصبي لا يطيق من يخالفه . والأولاد مراهقون شبوا عن الطوق متمردين . يناطحون بالحجة ، والحجج تتكسـر على رؤوسهم . يراد لهم زمان ولى حينما كانت الكلمة لعماد الأسرة هي الأولى والأخيرة . ولا يريـد أن يأخـذ الأبنـاء بالحسنى والموعظة الحسنة . وكانت الشكوى تُسمع في أغلب المجالس العائلية . ولو أن الناس لم تكن تصدق فأمامهم أولاد ملأ الأدب أحاديثهم . يبدون من ذوي الطبائع الهادئـة . وإذا ما أسدلت سـتائر البيـت علـيهم يتعـاركون ويتنـاطحون

ويتجادلون . وتنطلق من تصرفاتهم شـظايا كثيـرة تـزعج الرجل الحالم بالماضي ، فكأنهم كانوا بوجهين . وجه هـادئ يقابل الناس . ووجه ثائر خلف حوائط البيت .

ولما لاحت تباشير الثانوية العامة فرض الابـن البكـري حصار الصمت على البيت ، ذلك لأنـه يريـد أن يتفـرغ للدراسة المثمرة . فمنع أخاه الصغير من عادة العزف علـى الأكورديون . ولو أن ذلك الأخ لم يعبأ به في بعض الأحيان . وتأتي أمه تسترجيه حتى لا يلقي الابن البكري اللوم عليـه إذا فشل ، فيكف الابن الصغير عن العزف . ولو أنه يعاوده بعد فترة حتى تصدر إليه النواهي ذات الأسـنان المدببـة . ويميل أخوهم الوسط إلى مشاهدة التلفاز وسماع الموسيقى في المذياع .أما الأخ التالي للبكري في الترتيب فقد كان نهماً في قراءة دروسه ، ولو أنهم يتهمونه بالغباء لأنه يستذكر كثيراً ، ولا يحصل على درجات عالية . وكان من سماته الصـوت الهادئ والطبع المستكن ، لكنـه معتـز بنفسـه ، وأن هـذا الاعتزاز سبب الإشكالات بينه وبين البكري . فهـو يريـده طوع أمره ، مما ألغى كل علاقات ودية بينه وبين أخيـه . وصار يتحاشاه . ولو أن البكري يتسلط مقلداً أباه فـي هـذا التسلط .

اشتعلت نيران الغضب فجأة ، حينما كانت تذاع تمثيليـة جديدة لأول مرة . وارتفع صوت التلفاز وطلب أن يقفـل . غير أن أحداً لم يعره اهتماماً وإزاء هدير التلفاز في الخارج ، وضياع صوته الذي بح من كثرة الشكوى . قرر البكـري

أن يغادر البيت حاملاً كتبه وملابسه . واتجه إلى بيت جـده لأمه . وحينما دخل عليه كان مضطرب الأعصاب . تبـدو عيناه الخضراوان زائغتين . يحركهما بسرعة كأنما جهـازه العصبي فقد التحكم فيهما . ورأى جده حقيبة ملابسه وأخرى بها كتبه . صافح جده بحرارة وقامته الطويلة تظلل وجه الجد . ودخلت جدته وصافحته وقبلته . يعرفان أنه ولد أليف ليس له صوت . لا يعتدي على أحد يستنكران ما يقال عنه إنه فقد الحياء وعلا صوته واصبح يشاكس أخوته . ولما رأى فيـه أبوه هذه النزعة العدوانية جعله يتدرب علـى المصـارعة ، وألحق أخوته بالفريق في نادي المصـرف حتـى يكونـوا جديرين بالرجولة ، ويستنفدون طاقتهم في الرياضة بدلاً من الشجار . كانت الرجولة عنده هي القوة البدنية والقدرة علـى المنازلة . كان يريد أن يفرغ شحنة العدوانية في سلوكهم في تلك الرياضة لكنه فشل .

جلس الولد لا يتكلم . وبدا حائراً . من أين يبدأ الحديث . أيبكي ؟ .. وكيف يبكي ؟ ..

قال جده : ما أخبار الثانوية العامة ؟

رد قائلاً : يبدو أنه لن تكون هناك ثانوية عامة يا جدي .
تتساءل الجدة : لم .. كفى الله الشر عنك .

لا يتكلم ، كأنما الكلام يهرب من عقله . ولا يصل إلـى لسانه . تتوجس الجدة شراً . تعرف أن أباه العصبي يعاملـه هو وأخوته بشدة . يريد أن يفرض نظاماً صارماً في بيتـه .

يأمر فيطاع ولا راد لقوله . لا متـنفس اسـمه المناقشـة أو الحوار أو حتى تعليق على الأوامر . تسأله :

- أتشاجرت مع أبيك ؟ ..

تعرف الجدة أشياء كثيرة عن أبيه ، ولكن الجد لا يعرف . لا تريد أن تنقل إليه ما يحدث حتى لا ينـزعج . حتـى لا يتدخل في حياة ابنته ويتعارك مع زوجهـا . كانـت الجـدة مستودع أسرار ابنتها . أوصتها أن تكون كل أسرارها فـي خزانة تقفل عليها قلبها لا تخرج منها . ولا تبـوح بشـيء لأبيها . روت لها كل حوادث الجحيم التـي تعيشـها هـي وأولادها مع رجل غيور عصبي حقود أناني . كل الصـفات السيئة فيه . وفي نفس الوقت لا مبالي بـارد فـي بعـض المواقف . وفي مواقف أخرى تجده يغدق الحنان دون حساب .. سواء في المال أو في العواطف . كتلة من المتناقضـات تعيش في جسد واحد .ولكن نفعه أكثر من ضـرره . وقـد أوصتها بالصبر على ما بلاها ، فلن يقبل أبوها لها الضـيم وسوف يتدخل في حياتها . وسيزيد اللظى الذي تعيشه نـاراً .وسوف يشد ويجذب مع زوجها . وهو بدوره لـن يطيـق تدخله . وقد يؤدي الشد والجذب إلى الطلاق فهـل تقبـل أن تكون مطلقة ؟ .. ألا يكفيها العذاب الذي عاشت فيه في المرة الأولى . إذا كانت لا تقبل فعليها أن تصبر . فربما يحدث في يوم ما أن يتغير زوجها . ويصبح نفعه يزيـد كثيـراً عـن ضرره .

روى الولد ما حدث من هدير التلفاز . ورغبته في الهدوء . قال الجد : على العموم أبق في بيـت جـدك . واسـتذكر دروسك فقد كانت فيه إلى عهد قريب بنت خالتك حتى تمكنت أن تنتقل من كلية الطب البيطري بالقاهرة إلى كليـة العلـوم بالإسكندرية .. مع عائلتها . وأنت أدرى بأن الحجرة التـي شغلتها لخالك . وخالك كما تعرف في أمريكا يعمل . شـدته الأمريكية إلى بلادها ولم يعد .

تقول الجدة : لكن يجب أن يعرف أبوه وأمه .

يقول الجد بحزم : سأطلبهما الآن .

ونظر إليه ، فوجد الاطمئنان يزحف إلى ملامحه ، بعد أن كان الذعر يلونهما بلون قاتم .

(٢٣)
الكآبة

ظن أنه في حلم . شقة واسعة من شقق الـزمن القـديم . حجرة خاصة . الأكل بالمواعيد . والطعام دسم كثير . هكذا تطبخه الجدة العجوز . يليق بجسده الذي ينمو بسرعة عجيبة . الذهاب إلى المدرسة ليس فيه مشكلة . ولو أنـه يسـتغرق وقتاً غير أن الطريق الجديد لا ينفر منه . واستيعاب الدروس سهل ميسور . الذكاء لا يحتاج إلـى مدرسـين . والجهـد الخارق ينمي الذكاء . أليس ذلك حلماً لو قارن حاله في بيت جده الهادئ الساكت وحاله في بيت العائلة الصـاخب وليـد الضجيج .

لكن يبدو أن دوام الحال من المحال . فقد انقلب الوضـع فجأة دون مقدمات كأن الأقدار تمتحن قوة صبره واحتماله . بداية الانقلاب صرخة استغاثة من جـده . طلـب الغـوث بصوت مختنق . وخرج مذعوراً من حجرته ، ليجـد جـده تأكله النيران . وصوت أنبوبة البوتاجاز يغلي وتكاد تـودي بالشقة بأكملها . قفلها وهرع إلى حجرة النوم ليحمل بطانيـة يلف بها الرجل وقد سقط على الأرض من هـول الصـدمة وراح يطفئ جلبابه الأبيض . غير أنه لم يفلح . كل ذلك تـم في ثوان . وتحول الجلباب الأبيض إلى نسيج أسود متهرئ . وولولت الجدة ، حينما اسـتيقظت مـن نومهـا مفزوعـة . وهرعت إلى الجار تطلبه فهو طبيب قـد ينقـذ الجـد مـن المصيبة .

اتضح أن الغاز تسرب من أنبوبة الحمام وملأه غـازاً لا رائحة له . وكان الجد يشعل سيجارته فالتفت حواليه النيران . كان من الخطأ ترك شعلة السخان مشتعلة ، فكـان الجـد يغلقها ، ونسى الأنبوبة مفتوحة ، وتسرب الغاز من الخرطوم القديم المتهالك .

لم يمهل القدر الجد طويلاً . كان داء السكري قـد تغلـب عليه . وساهمت الحروق في تعجيل الأجـل . ولـم تنفـع المراهم ولا الأدوية . ورقد في المستشفى واستقبل الـزوار بابتسامة باهتة . ثم خمدت أنفاسه إلى يوم معلوم .

امتلأ البيت بالوافدين . جاءوا للتعزية في الفقيد . جـاءت خالته من الإسكندرية ، ولم تكن لتفكر في العـودة إلا بعـد

أربعين يوماً . وجاءت أمه تبكي أباها بشدة وتنوح . وجاءت خالته الثانية بولدها وابنتها وتخاف زوجها لأنه خارج الـبلاد . وجاءت وفود من القرية ، تلك التي نزح منها الجـد فـي مقتبل شبابه . وجاءت أمم أخري مـن عـائلات قريبـة أو عائلات نسيبة . كلهم يملؤهم الأسـى علـى فـراق رجـل فاضل .

اختفت المائدة من صالة البيت وحلت محلها كراسي كثيرة ليجلس عليها الأقرباء والأصدقاء . واتضـح لـه أن خالتـه الصغيرة ستمكث في الشقة مع جدته إلى أجل غير مسـمى ، فليس من المقبول ترك امرأة عجوز وحدها في بيت واسع . فكيف تنهض عجوز دنت من الستين ببيت كهذا .

اصبح البيت خلية نحل يسمع فيها البكاء والنحيب والعويل أو الهمس بدلاً من الطنين . أين يمكن لطالب فـي الثانويـة العامة أن يجد فرصة للمذاكرة في هذا الجو الملبـد بـالغيوم السوداء . رفض فكرة أن يعود إلى بيت أبيه ، فقـد قـاطع البيت لأنه لم يجد فيه راحته . ولم يكن هذا الظرف الحـاد ليثنيه عن عزمه . أبت نفسه لأن يعود ووقف بجانبها يشـد من عضدها . لقد نفي نفسه بنفسه ولا سبيل لإلغـاء قـرار النفي . كرامته تئن . وعزة نفسه لا تسمح . طلبت منه أمـه أن يعود حتى لا تضيع عليه أوقات المذاكرة فرفض . وقابل أباه في المأتم ، ولكنهما لم يتكلما .

أخيراً قررت خالته الصـغيرة أن يـذهب إلـى شـقتها ويستذكر هناك . عليه من الآن أن يستوعب ما فاته طـوال فترة الحزن الممتدة .

أعطته مفتاح شقتها وانتقل على الفور . كان فـي حاجـة إلى الهدوء والسكينة ليباشر دراسته . لقد فاته الكثير ولكنـه قادر على أن يسترده من جديد . حينما فتح بـاب الشـقة ، شاهد الهدوء في استقباله ، والسكينة تنحني له ، لكن الكآبة تسربت إلى نفسه ، ودخل والصمت يمـلأ المكـان . كـان يزعجه في بيت جده أن الشقة تطل على شارع عام مـزدحم بالمواصلات مثلما تطل شقة والده . أما شقة خالتـه فتطـل على شارع هادئ نادر السابلة .

هاهي الكتب معه . وهاهي الملابس في حوزته ، وهناك حمام به سخان . وثلاجة بها مأكولات فما باله يشعر بالكآبة . اندفع يقرأ ويستذكر ويحل تمارين الهندسة والرياضـيات . ينتقل من فنن اللغة العربية إلى غصن اللغة الإنجليزية إلـى أوراق اللغة الفرنسية . ويقطف من ثمار الفيزياء والكيمياء والأحياء . لكن الكآبة ما تزال رابضة على صدره ، كأنمـا اتخذته مقراً دائماً لها أو مرتعاً تلعب فيه كيف ما تشاء .

اكتشف والليل يهبط على المدينة أن سـبب الكآبـة هـو الوحدة . في بيت أبيه كان هناك أخوته . وفي بيت جده كان هناك جداه . أما هنا فلا أنيس ولا جليس ولا أحد يتكلم معه . إن الكآبة مصدرها الوحدة . عليـه أن يقتلهـا بالانشـغال بالمذاكرة . وكلما اقتربت بأنفاسها الحادة منـه وحاولـت أن

تضع أصابعها الكريهة على جسده ، نهض ليلعب بعض التمارين الرياضية أو يخرج قليلاً يتمشى أو يزور أحد الأصدقاء . لكن مع دنو مواعيد الامتحانات وانكبابه على المذاكرة تمكن من قتل الكآبة .. لكنه لم يشهد جثتها أمامه .

(٢٣)

التأشيرة

أفكار مجنونة تجري في أدمغة الأولاد . تروح وتجئ دون توقف . يريدون السفر إلى الخارج ، والعمل في دول أوربا . زاد اشتعال هذه الأفكار هجرة خال الأولاد إلى أمريكا . وتنقله ما بين أمريكا وأوربا . هذا الخال حصل على أعلى الشهادات فماذا تفعلون أنتم يا طلبة الجامعة ؟ ! .. هكذا سألتهم أمهم . لا أهمية . هناك كثيرون سافروا وعادوا ومعهم أموال طائلة . أستعملون في المطاعم والمقاهي . .. أندالاً ؟ .. أم ستتسولون وتطلبون من الإفرنج الحسنات ؟ .. راحت أمهم تقرعهم .

دارت الأفكار في ذهن الابن الأكبر وخبت الأسئلة وتورمت الإجابات . وعرف أن خاله في إنجلترا يقوم بتدريس برنامج صيفي للطلاب في إحدى الجامعات . وحجبت هذه المعلومة عن والده . أليس ذلك حجة لدخول البلاد بتأشيرة سليمة ؟ ! .. إن التأشيرات صعبة المنال ومستحيل الحصول عليها في ذلك الزمن الملغم بالطرد والمنع . طلب من أبيه أن يدبر له ثمن التذكرة حتى لو سحب من دفتر توفيره مبلغها . هزأ به الأب وقال : لو جئت

بالتأشيرة فسوف أقطع لك التذكرة . كانت المياه قـد عـادت إلى مجاريها معه بعد أن تفوق ودخل محـراب الجامعـة . وترك شقة خالته ملاذه الأخير وعاد إلى مأواه الأول لينفض عنه التعب والوحدة وثقل المعيشة .

آه لو سافر سيعد ممن تخطوا الحدود وقفزوا السـدود . سيصبح مثل خاله . سيرى أوربا . ولو أن خاله رأى أوربـا وأمريكا . لقد سافر لدراسة الدكتوراه فـي أمريكـا وعـاد لسنوات قليلة ثم قفل راجعاً ليستقر هناك في أقصى الجنوب . يأتي فقط من حين لآخر . يسكب ماءه القراح على صـدور أفراد العائلة فترتوي رياً غير كامل بطلعته البهية . ثم يعود من جديد إلى مقره الدائم . كيف سينفذ مـن القنصـلية ؟ .. وكيف سيحصل على تأشيرة الدخول إلى المملكة المتحـدة ؟ .. التأشيرات شحيحة وممنوعة . محرمة على الشباب كأنما أصبحت من المحرمات العشر. وزاد الأمل اتساعاً وتضـور الشوق جوعاً . وبدأ القلب يرتجف لما استخرج جواز السفر الشبابي . كان سهلاً أن يستخرجه لأنه تعدى المرحلة الثانوية ونفذ إلى الجامعة . وحينما حاول أخوه التالي له أن يقلده لـم يتمكن لأنه لا يزال في الثانوية العامة وموقفه مـن التجنيـد الإجباري يحول دون الخروج . أما هو فإن تجنيد ه مؤجـل لحين انتهاء دراسته الجامعية .

أندس الولد في صفوف راغبـي التأشـيرات . يريـد أن يستطلع حظه في القبول . بعد لأي تمثـل أمـام المستشـار الدبلوماسي . رأى المستشار عينيـه الخضـراوين وأهابـه

الأبيض وطوله السامق . ورثها عن أمه ودعم الوراثة أمـه لأبيه وأمه . وكان المستشار ينظر إليه مـن خـلال عينيـه الزرقاوين بإمعان . يتأمله ويتطلع إلى شعره المجعـد ذلـك الملمح الوحيد الذي ينقله من فئة إلى أخرى . والفتي ينظـر شعره الأصفر الحريري فيعجب به . وهو قريب من شـعره في اللون فهو بني اللون . مد المستشار يده إليـه يصـافحه وهو واقف فظهرت قامته مديدة .

سأله بأدب بعد أن سمح له بالجلوس :

- ماذا تعمل ؟ ..
- أنا طالب في كلية الهندسة .
- وماذا تنوي أن تعمل في لندن ؟
- سياحة . وأقابل خالي .
- هل يعمل هناك ؟ ..
- - لا . إنه متجنس بالجنسية الأمريكية لكنه سوف يقوم بتدريس برنامج تعليمي في إحدى الجامعات هناك .

ونطق اسم الجامعة واسم خاله وسبقه بلقب دكتـور فهـز المستشار رأسه كأنما يعرفه . وطلب منه أن يترك الطلـب وجواز السفر .

حينما عاد إلى البيت سأله أبوه : ماذا فعلـت ؟ .. قـال الشاب : أخذ جواز السفر . قال : إذاً أبشر فقد حصلت على التأشيرة . وظهرت علامات الاستغراب على الأب ثم سأله : كيف حدث ذلك ؟ . قال : لا أدري .

كتم الابن السر في نفسه . ولم يبح لأبيه أنه أشـار إلـى خاله المنتظر وجوده في إنجلترا . كان يعـرف أن أبـاه لا يحب خاله . مصانع الود بينهما أفلست ولم تعد تنتج أجـزاء الود خاصة بعد أن أهمل الخال في تقديم أوراق الماجسـتير لأستاذ القسم صديقه وأدعى أنها ضاعت منه . بالإضافة إلى تعالي الخال عليه . وظنه في نفسه أنه مـن عجينـة غيـر عجينة أفراد العائلة الآخرين . غير أنه لم يكن يكره خالـه . كان يتخذه قدوة له . لقد صمم أن يحضر للدكتوراه عقب أن يتخرج من الجامعة .. أمله أن يحصل عليها فيضارع الرجل الكبير . وكان يغلف ذلك بسرية تامة ، فلا يبوح به لأحـد ، ولا حتى أخوته . كان يريد أن يبلغ من العلم ما وصل إليـه خاله . ويريد أن يحصل من المال على ما حصل عليه ذلـك الخال . ولم يبح بذلك حتى لأمه . فقد ينقل إلى الأب ذلك من باب التفاخر فيغضب منه . لأنه يرفض أن يقلد ابنه الخـال في شيء .

وفي زيارة للأب إلى حماته . راحت تقول لـه إن ابنهـا اتصل بها من إنجلترا . يقوم بمهمة علمية هناك . يسأل عنها في أي بلد يكون . وربط الأب بين سفر الابن واقامة الخال في بريطانيا ، فلما وصل إلى بيته نادى ابنه الكبير وقال لـه في غضب :

- سمعت أن خالك في لندن .
- لا أعرف ..
- أريد منك ألا تتصل به .

- أنا ذاهب للعمل وليس لإجراء الاتصالات .
- سوف اقطع لك تذكرة السفر .
- شكراً .
- أعلم أنني اقترضت ثمنها . وأنت مكلف بأن ترد ذلـك الثمن لي . أي يجب أن تعمل .
- ذلك أمر لا شك فيه .
- إذا تقاعست ، فلن أفكر مرة أخرى في أن تسافر .
- الأمر متوقف على التأشيرة فإذا صدرت فسوف أسافر وأعمل وأرد لك ثمن التذكرة .

كان يتكلم بعصبية وثورة ، وجد الابن أن لا داعي لهـا . وتساءل بينه وبين نفسه : وماذا لو عـرف أننـي سـأحاول مقابلة خالي في لندن ؟ ..

(٢٤)

العين

ما هذا الحظ ؟ .. أخوه البكري نجح وحصل على أربـع وسبعين في المائة من الدرجات والتحق بكلية الهندسة . وهو حاصل على ثمانين في المائة من الدرجات في العام التـالي ولا تقبله كلية الهندسة . يقذف به مكتب التنسيق إلـى كليـة الزراعة . دخلها وهو يؤكد لنفسه أن العين الحاسدة أصـابت العائلة .. بل أصابته هـو قبـل الآخـرين . ولـم يستسـغ المقررات ، وخرج وكله عزم ألا يعود إلى هذه الكلية مـرة أخرى .

قال لأمه بهمس كأنما يسر لها أمـراً : سـأعيد امتحـان الثانوية العامة من المنازل . تسأله : وهل أنت قـادر علـى مواصلة الجمع بين الدراسة في الزراعـة والدراسـة فـي الثانوية العامة . أجاب : لن استذكر غير الثانويـة العامـة . قالت تستحثه على الرضوخ : كلية في اليد خير مـن عشـر على الشجرة . غير أنه أصر . وقال : لا تذكري لأحد أنني استذكر الثانوية العامة من جديد حتى لا تصيبني العين .

كانت أمه مقتنعة بالحسد . وتشهد عليه أمور كثيرة حدثت في عائلتها . منها ابنها الثالث الذي كان يسير فـي دراسـته منتظماً .. ينجح كل عام . وإذا به اعتباراً من السنة الأولـى الثانوية يصاب بنكسة ، فينجح في السنة الأولـى بعـد أداء الملحق . ويرسب في السنة الثانية . ثم يصاب بـداء فظيـع وهو اللامبالاة بكل شيء . قرأ عن النفط وأنه قد ينتهي مـن العالم في عام معين قادم . وحينئذ تعود الإنسانية إلى عصر الفحم . ثم عصر البخار ثم العصـر الحجـري . ويتقهقـر الإنسان . وما أسرع ما اصبح يردد نظريته ثم يتساءل : إذا كنا سنعود إلى الخلف فلم المذاكرة ؟ .. ولم الجهد ؟ .. ولـم السعي وراء الرزق ؟ .. أصابه مس من الخبل مثل خالتـه الثرثارة . كأن في هذه الشجرة عرقاً خفياً يسري فيه الجنون الخفيف حتى يصل إلى الأعماق . أما الابن الرابع فإنه ذكي ونبيه ولا يعترف بأن العين ستصـيبه بشـيء . وإن كـان سلوكه يبدو حذراً منها .

في سرية تامة بدأ الابن الثاني يستذكر . تسأله خالته عن كلية الزراعة ، فيقول : أي كلية يا خـالتي .. بمـاذا تنفـع الشهادة في هذا الزمن !! .. ويسأله ابن خالتـه : إذا كنـت تحب الهندسة فلم لا تستذكر دروس الثانوية العامة من جديد . فإذا تحسن مجموعك دخلتها . يقول وقد رسـم علامـات القرف على وجهه : استذكر من جديد هذه العلوم .. أبـداً .. لن يحدث .

سألوه في آخر العام : ماذا أحرزت في كلية الزراعة ؟ .. قال مبتهجاً : أنا لم أدخل الامتحان . سأله ابن خالته : وماذا ستفعل ؟ .. قال : لا أدري . وكان ينتظر شـهر أغسـطس حتى يتأكد من درجاته الجديدة . وإذا به يفاجأ بحصوله على أربع وثمانين في المائة من الدرجات . ويدور حول بيـوت الأهل يعلن النتيجة . كان الفخر يتقدمه وهو يدخل بيت خالته ويمشي بخيلاء . والحذر من العين يمنعه أن يعلن النتيجـة . والابتهاج يدفعه أن يعلنها .

استغرب الجميع أن الولد أخفى عنهم ما كان يرتبه . ولم يدروا أنه كان يتفادى شرارات العيون الحاسدة .

وذهب ووقف ساعات في الصفوف ليتقدم بأوراقـه إلـى مكتب التنسيق . لا يدري هل النسبة المئوية التـي حصـل عليها سوف تهدي إليه كلية الهندسـة كمـا يـروم . أم أن المجاميع المئوية سوف ترتفع ويطاح به مرة أخرى .

اقتنع بينه وبين نفسه أنه قد يصاب بنكسة ولا تخطو قدماه من عتبة كلية الهندسة خاصة أنه نجح للمـرة الثانيـة فـي الشهادة الثانوية وكان النجاح عسيراً .

استقبله أبوه باشاً هاشاً . وضمه إليه ، فهـو يعـرف أن ذكاءه ليس في مثل ذكاء أخيه الكبير لكنه يلحـق بـه فـي المنافسة بعد مجهود خارق . لكن الابن البكري أشار إلى أنه من الممكن أن يطاح به إلى كلية العلـوم وتغـرب شـمس الهندسة عنه . امتعض الابن الثاني امتعاضاً كبيراً . بينمـا الابن الثالث يقول له : كل شيء إلى زوال . ربما تتخـرج من كلية الهندسة فلا تجد نفطاً . ويصـبح العمـل يـدوياً لا يحتاج إلى مهندسين . سأله أبوه : أمتأكد أنت من ذلك .. إنها يا بني حجة حتى تبرر فشلك في الدراسة . ربما يكتشـف الإنسان التشغيل بالذرة فتتقدم الإنسانية أكثر مما هي عليـه الآن .

جاء الخطاب . وعرف من الظرف الأصفر أنه من مكتب التنسيق وفتح المظروف بسرعة . وأمـه تنتظـر بتـوجس النتيجة . وصرخ قائلاً: كلية الهندسة يا أمي .. ثم سقط على مقعد قريب وقال : لكن في الإسكندرية .

اغتمت الأم فهذه مصاريف جديدة فوق طاقة الأب . هـل يستطيع أن يجد سكناً آمناً هناك وأن يرسل له في كل شـهر مبلغاً يساعده على العيش ؟ ! ..

وقال الابن لنفسه : تلك هي العين . لم يكن لازماً أن أذيع نبأ حصولي على الثانوية العامة . دخلت فعلاً كلية الهندسـة

لكن العين ضربت قنبلتها ودفعتني إلى الإسـكندرية . مـاذا أفعل الآن ؟ .. سألت الأم : هـل يجـوز أن تحـول مـن الإسكندرية إلى القاهرة . قال : لا يجوز . ولكن لو قضيت عاماً هناك فقد يكون ذلك ممكناً بعد ذلـك . تسـاءلت الأم : وهل أبوك قادر على مصاريف إقامتك هناك ؟ ! ..

دخل الأب وسمع حديثهما فقال : سيذهب هناك بإذن الله ولو تطلب الأمر أن نشد الحزام على البطون .

(٢٦)

النعيم

أقلعت الطائرة من مطار هيثرو بلندن عائدة إلـى أرض الوطن . وهو قابع في ركن المقعد يائس حزين . يفكـر أن يقول إنه عاد خالي الوفاض . لـيس فـي جيبـه جنيهـات إسترلينية تكفي المصاريف التي تكبدها والده . لا بد أن والده سيكون ثائراً .. عنيفاً فماذا يفعل لمواجهة هذه الثورة وذلـك العنف ؟ .. إن الخبر لا بد أنه وصله . لا بد أن جدته سوف تذيع الأنباء كما تذيع وكالة رويتر أخبارها . تكلم معها خاله من لندن وقال لها إن ابن أخته العزيزة في ضيافته . وهو لا يجعله يتمنى شيئاً إلا حققه له . استأجر له حجرة في حـرم الجامعة خالية لأن الطلاب يتركونها أثناء العطلة الصـيفية . ويأتي كل يوم ليأكل عنده . ويخرج مع العائلة للسياحة فـي لندن وريف لندن . يجعله يشاهد كل ما يجب مشاهدته فـي إنجلترا . يتفرغ له بعد أن يلقي محاضراته في الجامعـة .. ماذا بعد ذلك الهناء ؟ .. هل كان ذلك ما يريده والـدك ؟ ..

إنه كان يريد أن تكد وتكدح وتغتنم وتدخر . ثم تعود ظـافراً كغيرك من الطلاب المسافرين . سيقول لك إنك خذلته . لـم تعمل ما فيه الكفاية . وأخلدت للسكينة والدعة والراحة ما دام خالك يدفع .. ولا يجعلك تغرم شيئاً من المال .

ترددت كثيراً قبل أن تتصل به . شققت طريقـك وسـط المطاعم والمحلات واستفسرت عن العمل هنا وهناك . حتى اهتديت إلى محل تعمل فيه في صناعة الفطائر المحشـوة . تقلي البيض مضروبا صفاره في بياضه . ثم تلقي بـه فـي فطيرة من الخبز . وترش عليه الفلفل والملح . وقد تضـيف إليه شريحة من الطماطم إذا طلب الزبون . لكنك أنـت يـا طالب الهندسة لم تكن ترضى بهذه المشقة . بل لـم تـرض بهذا الفندق الصغير الذي نزلت به . اعتبرته فنـدقاً حقيـراً رغم أنه نظيف وسعر الحجرة فيه معقول . كنت تحجم عـن الاتصال بخالك في ساسيكس حيث يلقي محاضراته هنـاك . أخيراً تجرأت . بعد أن عانيت من الوقـوف مـن السـاعة السادسة صباحاً إلى ما بعد منتصف الليل . صاحب المحـل كان يستغلك .. يمتص دمك .. لكنك كنت راضياً .. بسـبب الجنيهات التي كنت تتقاضاها .. لكن موجة القرف اجتاحتك ودفعتك إلى أن تتصل بخالك . فرح بك وفرحت بك زوجته وولده وابنته . وطلب منك أن تترك الفنـدق الحقيـر ، وأن تترك المهنة المهينة . وأن تلحق به في ساسيكس لتجد لـك فراشاً ممتعاً وفسحة من الوقت . ورفض أن تعمل في الحرم الجامعي أو في مطعم الجامعة رغم أن العمل كان متـوفراً .

حيث ذهب الطلاب الراغبون فـي العمـل فـي إجـازاتهم وأصبحت المدينة الجامعية فارغة إلا من طـلاب الفصـول الصيفية وهم قلة . أيكون ابن أخت الأستاذ يعمل في مطعم ؟ .. كانت لا تزال النعرة الشرقية تجري في عروقه ، مـع أن سنين طويلة مضت على انصهاره مع المجتمع الأمريكـي . حيث لا توجد هذه النعرات . الابن هناك يبدأ العمـل وهـو يدرس . وهو غريب في المجتمع الإنجليزي . مجرد أسـتاذ زائر ، لكنه يأبى أن يعمل ابن أخته في مهنة يدوية .

كان قد مضى عليك شهر وأنت غارق في هذا الإرهاق .. واستمرأت الراحة عند خالك . بل استمرأت العـيش علـى حسابه . الرجل ثري لا يأبه لهذه الملاليم التي يصرفها عليك ، لكنه يمنعك من العمل اليدوي . إنه فرح بك لأنك دخلـت كلية الهندسة . وولداه فرحان بك لأنهما لم يشاهدا أقاربهمـا منذ زمن بعيد . تداعبهما وتلاعبهما وتخـرج معهمـا إلـى الملاهي . بل إن خالك يعطيك مصروفاً يومياً إذ ربما تهفـو نفسك إلى شيء تحجم عن أن تطلبه علناً . قـرر خالـك أن يحرمك من هذا النعيم فجأة ، حينما اتخذ قرار عودتك رغماً عنك . كيف رضخت له ؟ .. لم لم تتصـنع أنـك مسـافر وتهرب إلى خضم الأعمال في لندن دون أن يدري ؟ ..

تهبط الطائرة إلى مطار القاهرة . عليك أن تتلقى ثـورة أبيك ببرود أعصاب . إنه أرسلك إلى لندن على أمل أن تعود وفي جيبك ثمن التذكرة على الأقل . لكنه سـيفجع فعـلاً إذا

أعلنته أن خالك استضافك ومنعك من العمل وأنك اســتمرأت الدعة لديه .. أحببت النعيم حباً جماً .

- أين ثمن التذكرة الذي وعدت باجتلابه ؟

يضغط على أسنانه

- لم أعمل كثيراً ..

البرود يجعله يتهته .

- ولم لم تعمل ؟ ..

الغضب في نبرات صوته العالي واضح .

- استضافني خالي ..

السكينة تقابل الثورة العارمة .

- ولم لم تتركه وتختفي من طريقه ؟ ..

الغيظ يجتاح ملامح الأب .

- أستأجر لي حجرة في المدينة الجامعية وكنت أتفسح واتغدي وأتعشى عنده .

يتذكر الأيام الخوالي وهو يجيب .

- ألهذا ذهبت إلى لندن ؟ ..

يحاول الأب أن يلكزه فيتباعد .

- هذا ما حدث ؟ ..

يحاول الابن أن يغرب عن وجه أبيه .

- إذاً أبشر .. لن تذهب مرة أخرى إلى الخارج .

طأطأ رأسه . وذهب إلى حجرته حاملاً حقيبته . وأضــأ النور وقفل الباب بإحكام . واخــرج مــن جيبــه جنيهــات استرلينية دسها في حقيبة كتبه .. تلك الجنيهات التي جناهــا

أثناء مرحلة الإنهاك . وهو يعيش في الخارج .. سوف تنفع - بلا شك - تلك النقود إذا قرر أن يعود من جديد في الصيف القادم .

(٢٧)

الغربة

تسع عشرة سنة في أحضان الأسرة ، لم تغرب شمسها عنه . وفشلت كل محاولات صد الغربة الإجبارية . واضطر أن يقطع الطريق من القاهرة إلى الإسكندرية حيث مكان الدراسة .

شعر بالوحدة منذ اليوم الأول ، لكنه همس لنفسه : تماسك يا فتي ! .. هكذا يفعل مكتب التنسيق فيك وفي غيرك ، يطيح به حسب مجموع درجاته . وحاول أن يثنيه عن هذه الإطاحة ، غير أن المكتب أدار له ظهره .

لم تكن الإسكندرية غريبة عنه . كان يأتيها في كل صيف مع الأسرة . يلوذون في أغلب الأوقات بشاطئ أبي قير حيث المساكن متوفرة وبأسعار رخيصة لا تؤلم جيب أبيه ، لكنه شهر أو نصف شهر ويعودون من جديد إلى القاهرة . أما هذه المرة فهو وحيد . لا أسرة معه . ولا أصدقاء . ولا زملاء . حتى ذلك الزميل الذي سكن معه في شقته لم يكن يعرفه . كان أبوه قد توسط لدى مدير استراحة المصرف ، فوافق على استضافته بمقابل في هذه الاستراحة . وحينما جاء إليها كان معه آخر ابن أحد زملاء أبيه . ولم يحاول الود أن يصنع جسراً بينهما . هدمت الرغبة في الابتعاد

الجسر . وكان يعرف أن خالته في الإسكندرية . وقد زارها وتردد عليها قليلاً ، فهو خجول يمنعـه خجلـه مـن الذهاب إليها . رغم أن أولادها قريبون من سـنه فيـا عـدا الصغيرة التي أنجبتها على كبر . وكان ما يمنعه بالفعل ذلك الوجه المتجهم لزوجها . كان يستقبله بلا حرارة . ويمضـى إلى حجرته ويقفلها . ولا يخرج منها إلا وهو علـى وشـك الرحيل . كان يعرف أنه فقد الروح الاجتماعية منذ زمن بعيد . وإن كانت هذه معاملته في الزيارات السنوية .. لكن هـذا الأسلوب كان يضايقه ، فمنع نفسه من التردد علـى عائلـة خالته إلا لماماً . وكانت المرأة تعنفه وتدعوه أن يـأتي كـل أسبوع ليتناول طعاماً صحياً مصنوعاً في البيت ، غير أنه لم يفعل ذلك إلا حينما تشتد الغربة فـي آلامهـا . ويريـد أن يجرحها فتنزف دماً حتى تكاد تترنح . لكن الغربة سرعان ما تسترد أنفاسها وتهاجمه وتحتل فؤاده دون مقاومة . ولم يجد غير وسيلة واحدة يقاومها بها .. هي أن يتـآلف معهـا ؟.. يعرف ملامحها ولا يهاجمها إنما يتقبلها كما يتقبل الإنسـان شخصاً ثقيل الظل .

كانت مقررات كلية الهندسة تحول دون أن يلهـو فـدأب على المذاكرة أولاً بأول . وكانت النقود التي تصله من أبيـه غير كافية لأن يلهو . والنقود التي أدخرها من عملـه فـي القاهرة في الصيف الماضي قليلة يضن بها على اللهو .. لذا تمكنت الوحدة والغربة منه وتمكن أن يقهرهما فـي بعـض الأحيان من زيارة أصدقائه الإسكندريين مـن المصـيف ..

أحفاد الرجل الذي يستأجر أبوه الغرف التي ينـامون فيهـا طوال فترة الصيف . وكانوا في مثل سنه وقريبين منه لكـن كبيرهم كان طالباً بكلية الأسنان مقرراته لا تسـمح بـاللهو دقائق . وأوسطهم كان قد ألتحق بكلية العلوم لكن لـم تكـن مناهجها تعجبه فآثر إعادة الثانوية العامة . وأصغرهم كان ما يزال في المدارس الثانوية . يطلب مزيداً من اللهو أكثر من الدراسة . لكن مشاربه لم تكن تتفق مع مشارب الفتـي فلـم يصاحبه ، لذلك استمرت الغربة تهاجمه من جديد دون هوادة . وهو يدعي الانصياع لها حتى إذا ما انتهـى هجومهـا ، وظنت أنه اصبح تحت رحمتها ينطلق ليجعلها تتقهقر .

تمكن أن يداويها بالصلاة ، فكان الخشوع إلى الله ينسـيه نفسه ، وينسيه آلامها . كما كان دواؤه الآخر هو الإفراط في المذاكرة فينسى به الدنيا وما فيها . ولو أن برد الإسـكندرية كان يتوحد مع الغربة فيذكره بنفسه وبآلامها . كان قر مقـراً لم يتعود عليه ، فقد كان لا يرى الإسكندرية إلا في الصـيف حيث النسمة العليلة ولم يشاهدها من قبل والأمطار الغزيـرة تضربها والزوابع الصارخة توقف الحركـة فـي مينائهـا ، والأعاصير والنوات والرياح عالية الصوت تحاول أن تقتلها وهي صامدة .

في الفصل الدراسي الأول تأكد أنه سـوف ينتقـل إلـى القاهرة .. لأنه نجح في كل العلوم . لكن في الفصل الدراسي الثاني ملأه الشك . خرج من الاستراحة مبكراً ليري النتائج . كانت الاستراحة تقع بالقرب من كلية الهندسة . وكـان مـن

قبل يركب السيارة العامة حتـى يلحـق المحاضـرات فـي مواعيدها . غير أنه في ذلك اليوم آثر أن يتمشـى .. حتـى يباعد بينه وبين قراءة نتيجة الدراسة .. تلك التي سـيتوقف عليها نقله إلى القاهرة أو بقاؤه في الإسكندرية . وكانت نسمة الصيف العليلة تداعب وجهه . واستعجب من تغير الأجواء . واستغرب أن ينسى بهذه السرعة آلام الشـتاء واضـطرابه النفسي فيه . ويعيش الصفاء بعينه مع قدوم الصيف .

وقبل أن يدخل ليرى نتائج امتحان الفصل الأخير اقتنـع بينه وبين نفسه أن لا فرق بين أن يبقى في الإسكندرية بسبب تخلفه في علم وبين أن ينقل إلى القاهرة بسبب نجاحه في كل العلوم ومكافأة له ليكون بجانب أسرته . بل علـى العكـس استمسك ببقائه في الإسكندرية حيث يشعر بالاستقلال ذلـك الذي حرم منه أخوته في القاهرة . وأوحت له نفسه الصافية أن يبقى أو لا يبقى أمر غير مهم . إنما المهم أن ينتهي مـن الدراسة أياً كان المكان . وشعر لأول مرة أنه يتآلف وينسجم مع الحياة في الإسكندرية وأن الغربة يختفي ليلها بالتدريج . وأن الغمام ينقشع ويحل بدلاً منه نهار الأنس الوضاح .

(٢٨)
الديوك

جلس في الشرفة الصغيرة المطلة على الشـارع العـامر بالحركة . يرتشف من كوب الشاي رشـفة بعـد أخـرى . وظهرت على محياه علامات الانتشاء . واستغربت زوجـه هذا الانتشاء ، فعادة ما يكون جبينه مقطباً .

كان يتذكر الحوادث التي حدثت له ، يوم انتدبه المصرف إلى دورة تدريبية في لندن . فتعلق به الابن الكبيـر والابـن التالي له ، وأصرا على أن يصحباه . لكنه اشترط عليهما أن لا يعتمدا عليه في معيشتهما . أن يسكنا بعيداً عنه في سـكن مستقل . وأن لا يطالباه بنقود لغـذائهما أو فسـحهما أو أي شيء من هذا القبيل . ووعدهما فقط أن يـدفع لهمـا ثمـن التذكرة ذهاباً وإياباً . أما الابنان الأوسط والصغير فقد ألتحق بعمل صيفي . ولم يطلبا أن يذهبا معه . الأوسط لأنه فشـل في دراسته ولا يتمكن من استخراج جواز سفر بسـبب أنـه مطلوب للخدمة العسكرية . والثاني لأنه نجح فـي دراسـته الثانوية وفُتحت له أبواب الجامعة ، ولا يتسنى له الخـروج من البلد إلا إذا تحدد موقفه من التجنيد . الفاشل والناجح معاً في الهم سواء .

ولما حصل الابنان على تأشيرة الدخول ، قررا أن يسافرا دون انتظار لأبيهما . بل عرفا فقط ميعاد وصوله إلى لندن . وكان الكبير قد انتقل إلى السنة الدراسية الثالثة ، والأصـغر قد انتقل إلى السنة الأولى الدراسية . وكلاهمـا فـي كليـة

الهندسة . أحدهما في القاهرة والآخر في الإسكندرية لا يزال . رسب في عام فتعذر عليه الانتقال إلى جامعة بالقاهرة رغم أنه منقول إلى السنة التالية .

والمعروف عن الابن الكبير أنه متسلط ، وقد أوصى أبوه الابن التالي له أنه إذا حاول أن يرقد على ظهره ، ويستغل قواه في العيش ، فعليه أن يتركه . وهذا ما كان . رقد الابن الكبير في الفراش . واستمرأ أن يصرف عليه الابن التالي له في الترتيب بزعم أنه يستجم . وقد اشتغل الصغير قبل الكبير وصار يكتسب . ولما استفحل الوضع ، ترك الصغير لأخيه الكبير المسكن المشترك ، ورحل بعيداً عن أخيه . واضطر الابن الكبير أن يبحث عن عمل . وبعد لأي وجد ضالته في محل كان يعمل به في الرحلة الأولى له إلى لندن . تذكره صاحب المحل ، فرحب به . تذكر أن أداءه كان حسناً طوال فترة اشتغاله عنده . في هذه المرة ها هو يعتمد على ساعديه ، لن يكون هناك خال يأويه ، ويمنعه من العمل اليدوي ، ويستضيفه في حجرة للطلاب في المدينة الجامعية طوال فترة إقامته في إنجلترا ، ثم يعيده إلى أرض الوطن خالي الوفاض . كان يعرف أن العمل شاق ، وأنه يجب أن يبذل جهداً خارقاً ، حتى يعود بجنيهات إسترلينية تجعله متميزاً بين زملائه في الجامعة .

لم يلتق بأخيه إلا عندما هبطت الطائرة في مطار هيثرو قادمة من القاهرة .. وعلى متنها أبوهما الفاضل .

تملص منهما حينما أرادا أن يرافقاه إلى الفندق . خشـي الرجل أن يلتصقا به ويعيشا على حسابه ، ولا يبذلا مجهودا . ودب الشقاق بينهم في مسألة اكتشاف الفندق الذي ينزل فيه . ولم ينصرف إلا حينما كتب عنوان كل منهما على ورقة . انصرفا على أن يلتقوا بعد أيام . اطمأن الأب إلـى أن كـلاً منهما قد وجد العمل المناسب وأنهما لن يعتمدا عليه في شيء . ما أنا ببخيل ولكن أريد منهما أن يتعلمـا الاعتمـاد علـى النفس . ولكن إذا صادفتهما مشاكل فسوف أتدخل لأنقـذهما منها .

ألتقي الأب بابنيه في بيت الابن الكبير . وجلس يسـألهما عن أحوالهما وهما يجيبان . ثم قرر الرجل أن يخرجوا معـاً ليجلسوا في أحد المطاعم . فهو يدعوهما إلى وجبة عشـاء . وقال لهما : هذه وجبة تحية لكما . لكن لا تسـتمرأ الأمـر وتطلباها كل أحد . لكن مثلما يحدث بين الديوك . ما كـادوا يجلسون إلى المائدة وينتهون من تناول الوجبة الدسمة علـى حساب الأب الفاضل حتى نشأ حوار بينهم ، أدى إلى غضب الأب منهما .. وتفرقا .. الديوك تتناطح وتتنافر فما الفـرق بينهم وبينها . ما أسرع غضب الرجل ! .. إنه لا يحتمل ..

ذهب الأب إلى محطة المترو .. ووقـف عنـد محطـة الشمال . بينما الابنان وقفا عند محطة الجنـوب . وشـاهدا الأب يقف على الرصيف غاضباً مزمجراً .. وعرفا أنه لـم يصل بعد إلى إدراك اتجاهات الشباب . وما كان بيـنهم إلا صراع أجيال . هو يريد أن يدخرا كل النقود ، ولا يدخلا في

متاهات اللهو . وهما يفضلان أن يـدخرا جـزءاً ويتمتعـا بالجزء الباقي . فأدركت العصبية الأب ، ونهرهما ، وحاول أن يسلط عليهما أوامره ، غير أنهما أصرا على موقفهمـا . وظهرا كأنهما خاصماه . وبدا أنه نفر منهما كما هي عادتـه حينما لا يستمعان إلى قراراته وينفذانها .

شاهداه يذهب ويجيء كأنما يسرب همه في هـذا السـير البطيء من اتجاه إلى عكسه .. حتى يصل المترو . وفجـأة شاهدا رجلاً مخموراً يتوجه إلى الأب . يطلب المخمور مالاً . الأب ما يزال غاضباً فنهر المخمور ولم يصرفه بالحكمة . فتحول المخمور إلى ثائر . يريد أن يضرب الأب . اشـتبكا معاً في عراك باللكمات والـركلات والصـفعات . وقـرر الولدان تلقائياً إغاثة الأب والزود عنه . قفزا في نزق إلـى مجرى المترو غير عابئين بالأخطار وما قد يحدث لهما من أضرار . وقفزا إلى الرصيف الأخر وقد تخطيا كل العقبات . الشريط الحديدي والفلنكات وصراخ المارة . وانقضا على المخمور يبعدانه عن أبيهما . ويمنعانه من التمادي . بينمـا الأب كان طريح الطريق . عين من عينيه قد رسـم اللـون الأزرق حولها علامة زرقاء . وجرحـت يـده مـن أثـر الاصطدام بالأرض . وما كاد المخمور يشاهد كثرة تتجمـع حواليه حتى ولى الفرار . وشـعر الأب لأول مـرة أن لـه عزوة تحميه في لندن .

استرد نفسه من الذكريات ، وعلا الابتسام على وجهـه . كان يظن أن زوجته لا تعرف شيئاً عن هذه الحادثة . وقـد

كتمها في صدره . وجد فيها ما يجرح هيبته . لكن الابنـين من باب التفاخر روياها لأمهما في سرية تامة . كـل واحـد على حدة .

(٢٩)

الخطاب

هل يتخذ الخطوة الجريئة أم ينساق مع الحياة وينسى مـا يريده لمستقبله ؟ .. هل يغامر ويترك المسـتقبل المضـمون نوعاً . أم تجرفه الأهواء إلى مستقبل غامض ؟ ..

جاس يفكر في استقرار حياته هذه السـنوات الطويلـة . كانت الأسرة تكرس كل جهودها من أجل نجاحـه .. كـانوا يؤمنون بذكائه وأنه يلمع في الهدوء والسكينة والأمان . وكان يعرف أن أباه يقاوم الرغبة في الدخول من أبواب الجدل معه . كان يحاول تفادي الاحتكاك به . يحاول أن يجد تفسيراً لهذا الشقاق المستمر بينهما . أخيراً أهتدي للسبب في بسـاطة . وهو يرشف رشفة شاي الصباح . إن هذا السبب يكمن فـي الأنانية . أبوه أناني بطبعه . يفضل نفسه على كل خلق الله ، ولو أنه أقل أنانية منه فهو يضحي في بعض الأحيـان مـن أجل أبنائه وأخوته وزوجته . وأنت أيضاً أناني ولكنك أكثـر أنانية منه . أنت لا تضحي أبداً لا بالرخيص ولا بالغـالي . وتجسدت هذه الأنانية في الرغبة بالاستئثار بخـدمات الأم . إن المناقشة تحتد بينهمـا عنـد محاولـة أحـدهما احتكـار مجهوداتها . كان والده يريد احتكار كل خدماتها لنفسـه وأن تخصه وحده بالرعاية . وتنصرف عن رعاية الأبناء ما دام

موجوداً - لا مانع لديه أن تراعيهم في غيابه - لأنهم كبروا وشبوا واصبحوا لا يحتاجون لرعايتها . لكنه يرى أن تكون أمه في خدمته وترعاه في كل شيء . إذا طلب شيئاً سـعت في الحصول عليه . إذا احتاج غذاء معينـاً تسـارع لتلبيـة الطلب ولو على حساب الآخرين . كانت الأم ممزقة بينهما . تحاول أن توفق بين أنانية الأب وأنانية الابن ، لكنها كانـت تفشل في بعض الأحيان . كانت هي بؤرة الصدام . ولا تعرف كيف تمنع هذا الصدام . حينئذ يحتدم النقاش بين الأب وابنه .

يذكر جيداً محاولة احتكار جهودها في السـنة النهائيـة . غير أن الأب لم يرض بذلك . وقرر الابن من جديد أن يترك البيت ، ويلجأ إلى خالته ، ليسكن فـي شـقتها المهجـورة . وهناك يستذكر ويستوعب دروسـه ، ويسـتطيع أن يضـع المشروع الهندسي المطلوب للبكالوريوس . كان يعـرف أن خالته لن تحتاج إلى شقتها ، لأنها وأسرتها تعيش مع أمهـا بعد وفاة أبيها ، ولا سبيل أمامها للعودة إليهـا . فـرط فـي احتكار مجهودات الأم من أجل أن يبلغ شـأواً كبيـراً فـي البكالوريوس . أنانية في الوصول إلى أعلى المراتب . فـي هذه الشقة سبق أن حصل على الشـهادة الثانويـة بتفـوق . وفتحت له كلية الهندسة أبوابها . وفي هذه الشقة أيضاً تمكن أن يبرز على زملائه بدرجة جيد جداً في الشهادة ، وبدرجة امتياز في المشروع .

الغريب أنه عاد إلى بيت أبيه كأن شيئاً لم يكن . واستقبله الأب مباركاً متناسياً كل ما كان بينهما من شـقاق . هكـذا يصفح الأب علانية ، لكن قلبه غيـر راض . وغالبـاً مـا يصرح بعدم الرضا في مجتمعات الأصدقاء . والابن يصدق هذا الصفح ، ويتصرف على أسـاس أنـه اصـبح صـفحاً خالصاً . وسرعان ما يتبين أن الطريق ملئ بالألغام . واللغم ليس أمامه حتى ينفجر إنما مخبأ في أرض رملية كالكركم . وينفجر اللغم فجأة حينما تتصادم أنانية الابن بأنانيـة الأب - مرة أخرى - وما أكثر الحوادث التي تترى ليحدث التصادم .

واقتضى الوضع حتى يستقر أن يتنازل عـن متطلبـات أنانيته في بعض الأحيان . وقـد مضـت سـنوات الخدمـة العسكرية ببطء . وكان يسمح للمهندسين المتخرجين حديثاً أن يختاروا بين سلك الضباط أو الوقوف في صـف العسـكر . وأختار صف العسكر حتى يؤدي الخدمة ثم لا يطلـب بعـد ذلك.

وها هو يقضي فترة الجيش ، ويتسلم وظيفة بمرتب مغر . لم يصله خريج من قبل .. في شركة مصرية تقيم إنشاءات في دول الخليج . فرحت الأم بمنصب الابن الكبير ، وكادت تزغرد لولا أن الأب منعها . حتـى لا يعـرف الجيـران . ويحسدوا الابن . امتنعت بالفعل وقالت : عندك حق !! ..

انزعج في البداية وهو يتناول مرتـب خمسـمائة جنيـه شهرياً ، فقد كان الخريج في ذلك الوقت لا يحصل إلا علـى

ثمانين جنيهاً بالكاد . ثم خفت حدة الانزعاج بمرور الوقت . وقارن ذلك المرتب ورغبته في الحصول على الـدكتوراه . إنها ستدر عليه مالاً كثيراً .

ولما نهض ليغادر البيت إلى عمله ، وقد كفـت الأفكـار قليلاً . أعطته أمه خطاباً جاء إليه من أمريكا .. مـن أخيـه الصغير . ذلك الذي يسعى أثناء أجازته الجامعيـة . فسـأل أمه :

- ألم يقل إنه سافر إلى كندا .

قالت الأم : يبدو أنه حول دفة الطائرة إلى أمريكا .

ولم يكن يظن أن الخطاب يصنع فيه مـا صـنع . قلـب تفكيره رأساً على عقب . جعله يتصرف كإنسان ترك وراءه المال والاستقرار والأمان ليغامر في حياة جديدة لهـا طعـم خاص .

قرأ الابن الكبير خطاب أخيه الصغير . وتـرنح . كـان يكلمه عن الخبرات . والتقدم التقني . والوفرة . والأجـور . وفرص العمل الزائدة عن حاجة الناس . ويقتـرح عليـه أن ينتظم في إحدى الجامعات الأمريكية ويحاول الحصول على الدكتوراه ، فسوف تقله هذه الخطوة من مصاف الشـحاذين إلى طبقة الأثرياء مثل خاله المهاجر . مثل ذلك الوضع قـد يساعده على أن ينعم بهذا النعيم زهاء خمس سنوات أو ست سنوات ثم يستمر النعيم أكثر رخاء إلى الممـات . اقتـراح معقول ! .. ما المانع أن أنفذه ؟ .. لكن في البدايـة هنـاك سنوات قحط وشدة وجوع .. لا أظن . ففرص العمل متوفرة

. والذكاء متاح . والنشاط ما يزال يركض في الساعدين . لكن في البدء عليَّ أن أغادر إلى هناك للسياحة . شهر واحد إجازة أتفقد فيها الأوضاع . فإذا أعجبني الجو هناك استقر . والوظيفة التي لا يحلم بها خريج أتتركها ؟ .. إذا كنت سوف أحصل على الدكتوراه فما هي فائدتها ؟ .. ثم إذا لم أشعر بالراحة في هذه القارة البعيدة فسوف أعود وأجد الوظيفة تنتظرني . أنت تغامر يا فتي . والمغامرة قد تكون من الخسران المبين .

كانت الحقيبة معدة . والنقاش محتدم بينه وبين أبيه على هذه الخطوة المجنونة . وخطاب أخيه الصغير راقد في جيبه به عنوانه في البلاد البعيدة .

(٣٠)
النداء

يبدو أن هذه الرحلة هي سياحة في الفضاء . من كان يظن أنه سيتجه إلى سان دييجو .. في أقصى أمريكا الشمالية . وكان في البداية مقصده كندا . وسفره إليها مسألة سرية لا يعرفها إلا أفراد العائلة . أمه وأبوه وأخوته . وتحاشى أن تعرفها عائلة خالته أو جدته أو عماته كأن السفر إلى الخارج طقوس تؤدى بسرية تامة .

ظن أنه سينهل من كنز مدفون في كندا ، لكن لم يحصل إلا على برد الأطراف وارتعاش الجسد وخواء الجيب . فقرر العودة على الفور إلى مصر . لكن في الطائرة راودته فكرة

حينما عرف أن الطائرة تهبط في مطار نيويـورك . خـرج منها ليتفقد الأحوال في الخارج . لم يجد ما يمنعه من عبور الجمرك بتأشيرة عابرة ويعود . ووجد أنه ليس هنـاك مـا يحول دون الخروج إلى المدينة . وهكذا أفلت داخل أمريكا . إنه ليس أول من خاض هذه البلدة في عائلته الكبيرة . هناك خاله أول الرواد جاءها دارساً . وتركها وعاد إليهـا زوجـاً ومدرساً في الجامعة . ثم استقر منذ زمن بعيد . وتمنى كـل واحد في عائلته أن يكون هذا الخال . أن يرحلوا جميعهم إلى أمريكا . وها هو يصبح الثاني فـي الوصـول إلـى أرض كولومبس المكتشفة .

كان يأخذ حذره في الأيام الأولى حتى لا يحتـك بأحـد ، فيطالبه بإبراز ما يثبت شرعية إقامته . لكـن الحـذر أخـذ يتلاشى .. يتبدد . وصار قلبه جسوراً . وأدرك أن أحداً لـن يعترضه في هذا الخضم من البشر ذي الجنسيات المختلفة . إن عينيه الخضراوين وبشرته السمراء وقامته الطويلـة قـد تؤكد أنه مقيم ليس أمريكيـاً ولكنـه مـن سـكان أسـبانيا المهاجرين . ولو أنه لا يعرف شيئاً في الأسبانية .

استطاع أن يجد له مكان إقامة وفرصة عمل ، فقد كـان الوقت صيفاً وفرص العمل في حالة انتعاش . وبـدأ يشـعر بحياة جديدة غير تلك الحياة التي عاشها في مصر . وأخـذ يكتب خطابات لأبيه ولأمه ولأخيه الأكبر . أما أخوه الأوسط الأول فكان قد سافر إلى المملكة العربيـة السـعودية بعـد تخرجه وحصوله على بكالوريوس الهندسة المبتغى . وكـان

أخوه الأوسط الآخر يكافح الزمن حتى يجري لينتهـي مـن خدمته العسكرية . وراح يشرح باستفاضة النعيم الذي سـقط في شباكه الحريرية . ولا يدري كيف تلقى أخـوه الخطـاب وانفعل وقرر أن يقطع آلاف الأميال حتى يكون بجـواره . يسعى أن يلتحق بإحدى الجامعـات حتـى يحصـل علـى الدكتوراه . دخل سائحاً وأراد أن يقلب تأشيرة دخولـه إلـى طالب علم . كان عليه أن يعرف الطريق فقط .

فوجئ به يطرق بابه . وحينما فتح الباب شعر بصـاعقة تهبط عليه . أخفى الصاعقة في الأحضان الملتهبـة . وراح يفكر في هذه المصيبة التي هبطت عليه . لا ينسي قصة أخيه الأوسط الأول حينما سافر مع ذلك الأخ الكبير إلى لنـدن ، واستمرأ العيش على حساب الأول .. حتى ترك له الجمل بما حمل .وهرب منه في حواري لندن . سـوف يكـرر نفـس الأفعال معه مرة ثانية . سينام على ظهـره . ويـأمره أن يشتري له ما لذ وطاب من أصناف مدعياً أنه يسـعى وراء دراساته العليا . وأنه يجب أن يضحي من أجل الفتى النـابغ في العائلة . ماذا تفعل يا فتي إزاء هذه الكارثة ؟ ..

لاحت له الفكرة وهو يقلي بيضتين لعميـل مـن عمـلاء المطعم ، ويرش عليهما الفلفل والملح . ويعطيهمـا للنـادل ليأخذهما إلى العميل . ما المانع أن اتصل بخالي فـي سـان دييجو . وفي هذه الحالة أكون كالمسـتجير مـن الرمضـاء بالجنة ! .. وخالي يعرف شراسة الأخ الأكبر وأنانيته وحبه لخطف الأشياء لنفسه . وعراكه الدائم معنـا بسـبب أو دون

سبب ، لمجرد فرض الأمر الواقع . وسوف يلبـي النـداء . ولسوف ينقذني من هذا البلاء . مرعى وقلة صنعة .

رحب الخال بقدوم ابن الأخت إليه .. على الأقل ليشـاهد بنت وابن خاله اللذين لم يرهما مذ كانـا طفلـين . البنـت شاهدها وهي مولودة من مواليد القاهرة . والابن رآه فـي رحلة يتيمة للخال هو وأسرته لم يكررها مرة ثانية . رغم أن المعروف في العائلة أنه اصبح في عداد أصـحاب الأمـوال الطائلة . ربما أفراد الأسرة يرغبون في السـفر إلـى بـلاد جديدة لم يشاهدوها من قبل .. مثل المكسـيك .والأرجنتـين وفرنسا .. أو غيرها . أرسل له رسالة على شركة الطيـران الداخلية بثمن التذكرة . من نيويورك إلى لوس أنجلوس .

وها هو يركب الطائرة من جديد دون أن يسأله أحد عـن هويته . الطيران الداخلي ليس فيه سؤال عن الهوية . كـان خائفاً أن يتم القبض عليه ويرحل إلى مصر لأنه متسلل ويفقد النعيم القادم إليه لكن أحداً لم يسأل لا عند المغادرة ولا عنـد الوصول . ورأى خاله ينتظره في مطار لوس انجلوس ومعه ابنته وولده يلبون نداءهم إليه . وتعانقا عناقاً حـاراً . كـان الخال معجباً بابن الأخت لأنه مرح.. ويكد ويكدح ذكي نشط . واستطاع أن يبرز مثل أخويه الكبيرين ويدخل نفس الكلية التي سلكاها . بل ويتميز في درجاته السنوية حتـى أن أمـه لُقبت بأم المهندسين رغم أن هناك ولداً لهـا لـم ينتـه مـن الدراسة الثانوية بعد ينتظم فـي صـفوف المجنـدين غيـر المؤهلين .

سأل الخال : ماذا فعل أخوك معك ؟ ..

ومهما تكن الخلافات فهو لا يبوح بها لذلك قال : تركـت له خطاباً أني راحل . ولم أقل له إلى أي جهة سوف أرحل .

(٣١)
المعاملة

استيقظ في الصباح ، وشعر من جديد بالفراش الوثير في دار خاله القابعة قرب المحيط الهادئ.. ودخل عليه يدعوه أن يرتدي ثيابه ليأتي معه إلى عمله .. ليرى مجده الذي لم يره أحد من العائلة . كلهم مقيمون في مصر وهو الوحيد المقيم في أمريكا من العائلة . كان يتساءل وهو يركـب الطـائرة المتجهة إلى لوس انجلوس على حساب خاله : هل سـيعامله مثلما عامله في الصغر . يذكر يوم أن حصل على الإعدادية بمجموع اقترب من التسعين في المائة ، ونفحته أمه جنيهـاً كاملاً . كان شيئاً كبيراً لصبي في الخامسة عشرة من العمر . وقالت الأم ، وابتسامة عريضة على شفتيها : هـل أدلـك على زيادة لهذا الجنيه . هز رأسه منفعلاً . وقال : كيف ؟ ..

قالت : أذهب إلى خالك فهو سوف يغدق عليـك إغـداقاً كبيراً لو عرف بنجاحك وحصولك على الشـهادة الإعداديـة بهذه الدرجة . ولم يكذبها ، وركب السيارة العامة المتحركـة ببطء ثقيل . كان يريد أن يصل إلى خاله قبـل أن يخـرج ، فهو يعرف أنه يخرج في الصباح بعد الساعة العاشرة ، ولا تزال الساعة تشير إلى التاسعة . كاد يصرخ في السـائق أن

يتعجل السرعة لكن الزحام وضيق الطريق لم يسعفا الرجل . وكانت صرخاته لا تتجاوز حنجرته . كانت محبوسـة فـي الحجاب الحاجز .

أما هنا فها هي السيارة الأمريكية تجري على بساط رقيق من الإسفلت .. ناعم كالحرير .لا عقبات ولا هـزات كأنمـا الطريق مفروش ببساط قشيب . بجواره خاله يقود السيارة . فيم يفكر ذلك الرجل ؟ ..أبهذه السرعة وصل إلى ذلك الثراء . لو مشى أخي الكبير – الذي صمم علـى الاسـتقرار فـي أمريكا – على طريقه فسوف يبلغ لا محالة هـذه الدرجـة . أتراه سوف يضع شهادة الدكتوراه في جيبه وتأتيه الأمـوال من ورائها ويبعثرها مثله ؟ .. وأشار خاله إلى إحدى الدور وقال : هذه داري السابقة اشتريتها بمليوني دولار ، ولكنهـا كانت ضيقة فاشتريت أخرى بأربعة ملايين دولار . يا خبـر ألهذه الدرجة تجري النقود في يديه ؟ .. وهو كان يعزق في أرض العمل كل هذه الساعات مقابـل ثلاثـين دولاراً فـي اليوم . ثم جاء أخوه الكبير ليشاركه هذه الدولارات ويـدعي أنه يبحث عن جامعة تقبله ولا سبيل أمامه للعمل وإلا شـغله العمل عن البحث عن الجامعة الفضلى . لم يطق العيش وهذا الأناني يستغله فما كان منه إلا أن طلب خاله بالهاتف يشـكو أخاه واستغلاله . ويوغر صدر خاله على أخيه حتـى يقبلـه ضيفاً عليه . ودعاه الرجل إلى داره على بعد آلاف الأميال ، فأدعى أنه لا يملك مليماً ، فوعده أن يرسل إليه تذكرة السفر . وكان صادقاً .

وقاده خياله إلى يوم أن دخل على خاله ينبؤه بأنه حصـل على الإعدادية . وسخر منه لأنه كان يظن أنه حصل علـى الدرجات النهائية في الشهادة . سخرية مريرة لا تليق بتلميذ مجتهد ، لكنه تقبلها كأنها جمر مضطر أن يضعه تحت لسانه . وقال له : وهل أحد يحصل على هذه الدرجات يا خـالي ؟ .. وكاد يسأله هل حصلت عليها لكنه امتنع حتى لا يغضـب منه . انتظر أن يغدق عليه بأكثر من جنيه لكن الخـال لـم يتعطف . ووقف حائراً حتى أعطاه خاله حقيبته وطلب منـه أن يحملها حتى سيارته . أيريد أن يعرفني مركزي .. مجرد حامل حقيبة . ربما يعطيك ما يسرك حينمـا تحملهـا إلـى الصالون المتحرك الذي ينتظره في الشارع .

تنبه الفتي وخاله يقول له : لقد وصلنا . وصل إلى أين ؟ .. إلى الشركة التي أسسها . وما يزال يعمل فـي الجامعـة أستاذاً . بهر الفتي وهو يمر بين الموظفين والجميع ينثـرون التحية على رئيس مجلس الإدارة . ورود ينثرونها في وجـه مبتسم . وهو في طريقه إلـى مكتبـه الفخـم . مـا هـذا الثراء ؟ ! .. هل سيستطيع أخوه الكبير أن يشق طريقه إلى الدكتوراه ، ويتمكن بعد ذلك من تجميع مثل هـذه الثـروة . أشك . ولم تشك ؟ .. إن خالك شهادته تنتمي إلـى العلـوم النظرية ، أما أخوك فمهندس وشهادته تنتمـي إلـى العلـوم العملية .. هل الخدمات تجلب المال أكثر مـن الإنتـاج ؟ .. لكن ذلك قد يكون حينما يبلغ المشيب . إن خاله مضى عليـه حتى الآن في أمريكا عشر سنوات بعـد الـدكتوراه ، فهـل

يتمكن أخوه أن ينجز ذلك خلال خمس عشرة سنة . سيكون قد تخطى أو أقترب من الأربعين ! .. زهرة الشباب تضيع في الأعمال التحضيرية . وحينما تبلغ الأعمال جذوتها لا تتمكن الشيخوخة من الاستفادة منها . وضع عجيب .. يصادف الفقراء أمثالنا . حصاد الثمار في نهاية العمر . يوم يتذوق المرء التفاح مراً .

تميل عليه السكرتيرة تسأله أن يشرب شيئاً . طلب عصيراً . إنه قرف من الشاي والقهوة وهما متوفران . أما العصائر فنادرة .

إن خاله يأخذه إلى أماكن كثيرة . يتفرج ويشاهد ويأكل في المطاعم . يصرف بغزارة . لكنه لا يعطيه أبداً سنتاً في يده . هل هو طبع فيه ؟ .. أيعتبر أن الهبة المالية استغلال .؟ .. ربما .. لقد حمل له فيما مضي الحقيبة حتى باب السيارة ، وهو صغير ، يتطلع أن يعطيه على الأكثر جنيهين ، زيادة على الجنيه الذي أعطته أمه . وشاهدا بواب العمارة ينهض ، ويتسلم الحقيبة منه ، والفتي حائر . أعطاها له ببساطة ، ولكنه كان متردداً . وفتح خاله باب السيارة ، بينما يفتح البواب بابها الآخر ليضع الحقيبة بجانب الخال ، وأدخل الخال يده في جيبه ، ونفح البواب خمس جنيهات .. وذلك الواقف على الرصيف ينتظر هبة منه لأنه نجح في الامتحان بتقدير مشرف .. قال له : مع السلامة . هدية قيمة من رجل مليونير لتلميذ مجتهد .

(٣٢)

الكفالة

يوم مشهود ، ذلك اليوم لا أحد من العائلة ينساه . بدأ بقدوم الخال من الخارج . الدكتور أستاذ الجامعة وصاحب شركة التصدير والاستيراد بين أمريكا وبلاد العالم . عز كبير أشار إليه الابن الصغير لزوج الخالة وهما واقفان ينتظران في المطار ليستقبلاه . كيف عرف ابن الأخت الصغير أن خاله يعيش حالة من الرخاء الأسطوري ؟ .. تلجلج ولم يحر إجابة . وكانت إجابته : ظاهر عليه النعمة ! .. كان ابن الأخت الصغير وزوج الخالة واقفان في حالة انتظار . والقلق ينهش قلبيهما . فربما لا يأتي الخال ويكون الذهاب إلى المطار لا فائدة منه . لكن هبوط الطائرة في ميعادها أثلج الصدور ، ووأد ألم الانتظار . ثم استدار على القلق وقتله . وجاءت الابنة المصرية للرجل القادم من أمريكا وزوجها ينضمان إلى الآخرين . لم يكن مستغرباً أن يأتي الجميع فيما عدا مجيء ابن الأخت الصغير لحضور مراسيم الاستقبال . إذ لم يعتد أحد أن يراه في استقبال الخال ذي السفرات المتعددة . ولم يكن أحد يعرف أن ابن الأخت قد سافر إلى أمريكا ، واتصل هناك بخاله ، وأنعم عليه الخال باستقباله في داره .. الواقعة على المحيط الهادئ . رائعة .. فخمة ..منمقة .. وكل ما حوله من دور قابعة في روعة وفخامة وبراعة في التصميم . والطريق مسفلت مريح . والأماكن باعثة على الحبور طاردة للملل والكآبة .. عاش

فترة من الدهر لم تزد على خمسة عشر يوماً .. وعاد مـن جديد إلى القاهرة على حساب الخال ، فأزداد اعتزازاً بالخال وفخراً به . ونطق بما شاهده من نعيم غير أنه لم يصرح أنه لمسه بيده وعاش فيه بنفسه . كان حضوره لاستقبال الخـال في المطار من باب الاعتراف بالجميل والكرم الذي أغدقـه عليه وهو في أمريكا .

كانت في ذلك الوقت الأخت الوسطى - أم ذلك الابـن - جالسة بين أختيها وأمها ينتظرن وصول الدكتور القادم مـن أمريكا في رحلة عمل وراحة في نفس الوقت . وجاء وحده ، لم يفكر أن يضم إليه زوجه وابنه وابنته من المرأة الأمريكية . تركهم في أمريكا ليستكمل أعمالاً لشركته فـي مصـر . وكانت تلك الأخت جالسة قلقة تريد أن تعلن الحقيقة ، غيـر أنها تحجم . أتذيع أن ابنها كان في ضيافة خاله زهاء خمسة عشر يوماً . وأن ابنها الكبير يعيش الآن في نيويورك . وأن أخاها القادم من أمريكا يعرف ذلك كله . كانت قد أخفت هذه الأخبار حتى لا يصيب الحسد الأولاد . وتشبثت بفكـرة أن أخاها العائد قليل الكلام في هذه المواضيع .

لكن يجب أن تتحدث بها ،لأنها تطلب معروفاً جديداً مـن أخيها . لا يقارن باستضافة ابنها على شاطئ المحيط الهادئ . إنها تطلب أن يكفل ابنها الكبير أثناء دراسته للدكتوراه في أمريكا . لقد تقدم بأوراقه فـي جامعـة نيويـورك . وهـذه الجامعة قبلته في الدراسات العليا بها في فرع مـن فـروع الهندسة . وتشترط أن يكفله أحد أصحاب الأمـوال الطائلـة

حتى يتمكن من استخراج تأشيرة الدخول إلى أمريكا . دخولاً شرعياً . وهكذا ينتهي العهد بتأشيرة السياحة ويحصل علـى تأشيرة التعليم .

ظهر للأختين الكبرى والصغرى وللأم أيضاً أن الأخـت الوسطى تريد أن تنفرد بأخيهن ، لكن الزحام من حولـه لـم يسمح لها . ومال عليها ابنها الصغير وسألها : هل تكلمـت معه ؟ ..أجابت : لم يحن الوقت .

وشاهدنها في اليوم التالي تأتي للزيارة لتقابـل أخاهـا . وعرفن أن في الأمر سراً .. لكن ما هو ؟ .. ولم يشـاهدنها وهي تستعطف أخاها أن يكفل ابنها ، فهو مقيم في أمريكـا ورجل ملئ ولن يضيره شيء في هذه الكفالة وسوف يـدفع أبوه كل النفقات . واستدار الرجل لها وقال : ومن أدراني ؟ ..قالت الأخت محتفظة بهدوئها : وهل سبق أن خـذلك فـي شيء من هذا القبيل ؟ .. قال : أنا لا أضمن ابنك . إنه ولـد مارق . وقد يرتكب ما أُلام عليه . فما العمل في ذلك الوقت ؟ .. كانت قد وصلت الخال أخبار الابـن الكبيـر وغضـبه المستمر وعصبيته التي لا تطاق ومشاداته مع أخوته وأبيـه ومشاحناته المستمرة رغم أنه ذكي ومتفـوق . قالـت الأم : ابني مؤدب . وتمت تربيته تربية حسنة . ولن يرتكب جرماً أو فعلاً تلام عليه . حقاً هو عصبي المزاج مثل أبيـه لكنـه تربى على أحسن الأخلاق . قال يحاول أن يتهـرب منهـا : اتركيني أفكر !! ..

لكنه كان عازماً على ألا يكفله .

وأفشت المرأة بين العائلة سر المقابلات السرية بينها وبين أخيها . وعيرتهن بالماضي . وقد وقفت بجانب ابنتـه مـن جانب زوجته الأولى المصرية ، فهي اشترت لها أثاث بيتها قطعة قطعة . حقاً كان ذلك على نفقة أبيها ، لكنـه كـان مرتاحاً في بلاد العم سام ، وهي التـي تخـرج وتـدخل ، تتفاوض مع البائعين وتساومهم ، وتتفق على النقل والتركيب والترتيب . حتى دخلت الفتاة في أبهى صورة . وبعد ذلـك يرفض أن يتحمل أن يوقع على ورقة بكفالة ابنها . لا يـرد الجميل . يا له من جاحد . لن يكلفه الأمر شيئاً غير مجـرد التوقيع على ورقة الكفالة . وبعـدها سـيتكفل أبـوه بكـل المصاريف .

وأعلنت الأخت الوسطى أمام زوجها وابنها الأصغر أنها فشلت في إقناع أخيها بكفالة ابنها الكبير .

خرج الولد ثائراً يملؤه الغضب مثل ما يملأ أبـاه حينمـا يستولي على كل حواسه . وقد قرر أن يواجه خالـه . كـان يظن أن له حظوة عند خاله وهو حينما يطلب من خالـه أن يكفل أخاه في أمريكا فسوف يرضخ الخال في الحال . لكـن الرجل صده فتطاول الفتى عليه . طرده في الحال من البيت وقال له : لا أريد أن أرى وجهك أبداً في هذا البيت . عـاد الفتى إلى بيت أبيه وقد قرر ألا يدخل بيت جدته حتى يموت . وألا تكون له صلة بخاله مهما كانت الظروف . ولم يتذكر كرم خاله حينما استضافه في أمريكا . كان فكره يدور حول السبب الذي يجعل مليونيراً لا يكفل قريبه الفقير ؟ ! ..

وفي البيت سمع قرار أبيه الغاضب : مقاطعة عائلة الأم كلها دون استثناء .

(٣٣)
القطيعة

انقطعت الأواصر بين العائلات ، عقب رفض الخـال أن يكفل ابن الأخت الوسطى أثناء دراسته في أمريكا . ولما علم الابن الكبير في أمريكا ذلك الرفض ، أصدر فرمانـاً بـألا تذهب أمه إلى والدتها ، وأن تقطع كل صلة لها بها وبخالاته ، وأن يتوقف أخوته أياً كان عمـرهم عـن زيـارة الجـدة والخالات . وكان الأب قد أصدر أيضاً مثـل هـذا القـرار وأعتمد فرمان الابن ، وقرر ألا يتصل بهذه العائلـة غيـر المتعاونة . لكن ما ذنب الجدة وابنها لا يعيش معها ويحيا في أمريكا . وما ذنب الخالات وأبنائهن الذين يعيشون مع جدتهم أو لا يعيشون معها ؟ .. إذ امتد فرمان الابن إلى خالته فـي الإسكندرية ، فحرم على أمه أن تزورها في أوقات الصيف . ولم تدر العائلة الكبيرة ما هي القوة التي يملكها هـذا الابـن حتى يستجيب لها كل أفراد الأسرة .

ولم يكن للأحداث التي تحدث في الأسرة الصغيرة صدى لدى العائلات الأخرى خاصة عائلة الجدة . إنما كانت تصل أخبار الأسرة الصغيرة عن طريق أخي الجدة الذي لم تنقطع الصلة بـه . ترقـى الأب واصـبح عضـو مجلـس إدارة بالمصرف الذي يعمل به . ولم يعرف أحد ذلك .

سافر الابن الأوسط الأول إلى السعودية للعمل هناك ، بعد تخرجه من كلية الهندسة جامعة الإسكندرية ، وانتهاء فتـرة تجنيده التي امتدت لأكثر من سنتين لأنه ضـابط احتيـاط ، ووصل النبأ إلى العائلة الكبيرة صدفة .

دخل الأخ الأوسط الثاني إلى الجيش ، وقضى به سنوات ثلاث . ولا تزال القطيعة تضرب أطنابها . سافر الأب إلـى أمريكا ، وفتح حساباً جارياً في أحد مصارفها ، وأودع مبلغاً كبيراً كان قد ادخر بعضه وأقترض من ابن خالتـه التـاجر الكبير في الموسكي الجزء الآخر ، ووقع شهادة ضمان لأبنه المتمرد . نسى في هذه اللحظـة تمـرده ، ووقـع الكفالـة بامتنان. من من أب يرفض أن يكون ابنه أحسن منـه ؟ .. سيقف بجانبه حتى يعبر هذه الدراسة . وهذه الأموال سـوف تسنده إذا ما أصابه مكروه . ووعد الابن أن يعمل ولا تمتـد يده إلى هذه الأموال أبداً لأن الأب سوف يستردها تـدريجيا ً ويعيد الجزء الخاص بقريبه الرءوم إليه . لـم ينفـع الخـال الجاحد ونفع القريب الحنون . رغم أن أخته رفضته عريسـاً لها في سالف العصر البعيد .

وتخرج الابن الصغير - سبب المشكلة ومفجر القطيعة - من كلية الهندسة - مثله مثل أخويه الكبيرين - ومن نفـس القسم المدني . وأنهى فترة تجنيده كضابط مثل أخيه الثـاني في الترتيب . بل تزوج وتم عقد قرانه وتم الاحتفال به فـي إحدى النوادي المعروفة ولم يـدع الأب لا جـدة الولـد ولا خالتيه ولا ابناً من أبنائهما .. وعرفت العائلـة الكبيـرة أن

الابن الصغير تزوج من خلال همسة متحفظة همس بها أخو الجدة إليها . قال لها إنه مدعو هو وأولاده وزوجه وأن عليها ألا تنطق بالسر أبداً . لكن الجدة أذاعت النبأ بعد خروجـه . ولم تعبأ الخالة الصغيرة بالأمر . ولم تهتم الخالـة الكبيـرة وقالت : لا أهمية لذلك . لقد احتفلنا بأفراح كثيرة . منها فرح ابنتي وابني وابنتي الطبيبة . ولا أهمية لفرح لا نحضـره . كنا سنشرفه لكنه يرفض ذلك الشرف .

واستمر الابن الكبير يدرس الدكتوراه ، والأب يموله من حين لآخر بالدولارات . ولكن الأب يصرح أن ذلك أمـر لا صلة له بما في القلب . فقد فعل الولد من الأفعال ما جعله لا يطمئن إليه ولا يميل ، لكن لا يمكنه أن يتخلى عنه وهو في هذه الضائقة ساعياً إلى مستقبل مشرق . سيقف بجانبه حتـى آخر المطاف . وإذا سألته الأم ماذا فعل لك ؟ .. يذكر لهـا تطاوله وتدخله في حياتهما وذكر أحداثاً طمسها الـزمن ولا يزال يذكرها . تبادره قائلة : أنت قلبك أسود . وكان الابـن يعرف ما يكنه الأب نحوه لكنه لم يكن يهتم وإذا احتاج لمال طالبه به دون تردد . كان يطالبه كلما تعرض لضائقة ماليـة أن يوافيه بما يزيل هذه الغمة . وسرعان مـا يلبـي الأب . يبدو الأمر متناقضاً : كيف يكرهه ويعاديه وكلمـا اجتمعـا يتشاحنان وفي نفس الوقت ينفق عليه ويعاونه ؟ .. لكن فـي النهاية هو أب والآخر ابن .

لكن الأخت الوسطى ضربت بفرمان ابنها الكبير عـرض الحائط . وذهبت في أحد الأعياد لزيارة أمهـا . واسـتقبلتها

الأم غاضبة . لكن القبلات والأحضـان الملتهبـة الفائضـة بالشوق مسحت ملامح الغضب . وهمست البنت في نهايـة الزيارة : أرجو أن تكون زيارتي لكم سرية .. لا يعرف بها أحد من أبنائي . وظهرت علامات الاسـتغراب علـى الأم وعلى الأخت الصغيرة التي تقيم معها .

(٣٤)

العتبة

نظرت حولها فوجدت فراغاً . لم يبق إلا أثـاث البيـت القديم . كل من حولها تبخر . أخت زوجهـا التـي طُلقـت وجاءت وحيدة دون أولادها ازدادت نوبات الاكتئاب عليها ، وأدخلت المستشفي الصفراء بالعباسية ، ولم تمض شـهور ، وتركت الجسد على الأرض ، وصعدت روحها إلـى حيـث يعلم بارئها . وأخت زوجها الأخرى الناعمة استقلت وشـقت طريقها في دنيا الأعمال أصبحت لها دار تملكها في ضاحية نائية أسفلها مطبعة تديرها باقتدار . وكانت زياراتها كثيـرة في البداية ، على الأقل لرؤية أمها ، وبمرور الوقت بـدأت الزيارات تخف . وأم زوجها التي لازمتها في حياتها حتـى شب أطفالها الأربعة رجالاً . لـم يتحمـل جسـدها الثـاني والتسعين عاماً ، فتركته الروح ورحلت .

وها هو ابنها الكبير لا يزال يكافح ويدرس . يعمل معيداً في معمل الجامعة بأمريكا ويتقاضى أجراً يساعده على الحياة ، ويقوم بالتحضير للدكتوراه ، يشرف عليه الدكتور اليهودي الذي يعطله عن الحصول على الشهادة العالية ، لأنه مسـلم

ومصري الجنسية ، ولكنه يرشوه بالهدايا فيلين قليلاً . بـل سهل له رحلة إلى مصر استطاع أبوه أن يغدق عليـه فيهـا ووعده أن ينتهي ابنه من الدكتوراه في ظرف شهور .

أما ابنها التالي له فقد غادر البلاد ، ولا يزال يعيش فـي غربة جديدة . انتقل من غربته في الإسكندرية يوم كان طالباً بكلية الهندسة ، واستمرت غربته خمس سنوات . ثم ها هـو يعود إلى الغربة الثانية في السعودية حيث يعمل لدى مقـاول سعودي سلمه لمقاول فلسطيني من الباطن ، يشح في صرف مرتبه كأنما يقتطع المرتب من جسده . حظه منكـود لكنـه يتحمل .

أما الابن الأوسط فقد انتهي تجنيده على خير ، وصمم أن يغادر البلاد ليلحق بأخيه الكبير في أمريكـا . حلـم حياتـه الطويل أن يهاجر . وها هو يحققه . حصل علـى التأشـيرة على أساس انه ذاهب للسياحة بعد أن زوده أبـوه بالتـذكرة والنقود . وهناك تزوج من زنجية وحصـل علـى الإقامـة والبطاقة الخضراء ويعمل سائقاً على سيارة أجرة . وينـوي أن يطلق الزنجية اليوم قبل الغد . وعلاقته مقطوعة بأخيـه الكبير فهو يعتمد على نفسه في كل شيء . لكنها أذاعت في العائلة بعد عودة المياه إلى مجاريها بطريقة سرية مع عائلتها أنه يعمل لدى مقاول في اليمن الشمالية . تكذب خوفـاً مـن العين أن تصيب ابنها الذي لم يستكمل تعليمه وذهـب إلـى أرض يتمناها كل شاب وعاش هناك .

أما الابن الصغير فهو آخر العنقود . ذهب إلـى أمريكـا لقضاء شهرين . وعاد يبشر بعالم جديد ، فذهب الجميـع إلا إياه . استقر في البلاد وتزوج وانجب ولداً . ويزورها فـي المناسبات ، ومعه زوجه المتكبرة حاملة بكالوريوس الهندسة مثله ، وابنه الصغير . ومثلما ساعد أبوه أخاه الكبير بالمال ، ساعد ذلك الابن في إتمام زيجته وفي تأثيث شـقته ، وفـي تأمين مستقبله . لم تكن تظن أن قلب أبيهم حنون لهذه الدرجة ، ولكنه كما يفيض حناناً في بعض الأوقات ، يفيض سـخطاً في أوقات أخرى . ولا تعرف أسباب الفيض والسـخط فـي كلتا الحالتين كأنه يجمع في قلبه المتناقضات التي لا تنتهي . يحركه الغضب في كل تصرفاته ، ولا يتوقف عن نقـد أي إنسان صراحة ، ويدعي أنه صريح لذلك يكرهـه النـاس ، ولكنها تعتبر ذلك قلة أدب .

والآن لم يبق في الشقة القديمة ، تلك التي قضت فيها أقل من ثلاثين سنة ، إلا هي وهو . وضع كانـت تتمنـاه منـذ زواجها ، لم يتحقق إلا وهي على أعتاب السادسة والأربعين . وكان زوجها قد شارف على السادسة والخمسـين . حقـاً تحسن وضعه المادي تحسناً ملحوظاً ، لكنه لم يكـن يلعـب بالمال كما كان يأمل . سافر إلى البلاد الأوربية والأمريكية . وسافرت معه لترى ولدها الكبير وهو يسكن في حي الزنوج . تخاف عليه منهم ، ولكنه لم يتعرض هناك لأي إيذاء كـأن الأمر إشاعات يطلقها الأمريكان على الجنس الثاني في بلادهم . وسافر أيضاً إلى كل البلاد العربية ليفتتح فروعاً للمصرف

الذي يعمل فيه . وقد زادت حصيلة أجره من هذه الانتدابات . وأجزل العطاء لولده الكبير في أمريكا رغم أنه كلمـا رآه يتشاجر معه بسبب وبلا سبب كأنه غضب تجسد في رجـل يريد أن يتنفسه . وكذلك أجزل العطاء لولده الصـغير فـي مصر . الأول حتى يتمكن من دراسة الدكتوراه ويفتخر بـه وسط العائلة والأهل والأصدقاء ويكيد به خاله الـذي ضـيع أوراق الماجستير له ويظن أنه الوحيد الـذي حصـل علـى الدكتوراه في العائلة مع أن عديلـه زوج البنـت الصـغرى حصل عليها . والثاني حتى يتمكن من أن يرفع قامته أمـام حفيده ولا يصاب بما يصيب الشباب من إحباط وفقر مدقع .

دخل عليها ليقول لها :

- أبشري سوف أسافر إلى جدة .

- هل ستقضي عمرة هناك .

- لا .. سوف أعمل في أحد المصارف هناك .. لمدة سنة . حينما تذيعين الخبر ، فقولي فقط إنني سأعمل لمدة ثلاثة شهور قد تمتد ..

- وإذا مرت عليك سنة .؟ ..

- قولي إنهم تمسكوا بي .. والمصرف في القاهرة يصر على عودتي .

وعرفت أن زوجها تخطى عتبة الفقر ليدخل عتبة جديدة طالما حلمت بها . أخيراً بعد هذه السنوات الطويلة .

(٣٥)
الثاني

دائماً ترتيبه الثاني في أسرته . يوم ولادته . يوم حصوله على الشهادات الابتدائية والإعدادية والثانويـة حتـى عنـد حصوله على بكالوريوس الهندسة . جاء ترتيبه الثاني ، فقـد كان يسبقه أخوه الكبير دائماً وكان قد سبقه إلى كلية الهندسة من قبل ، وتخرج قبله ، بل تخرج من نفس القسم المـدني . وكان الثاني أيضاً في السفر إلى الخارج . زار لنـدن بعـد أخيه الكبير . لكنه في هذه المرة يكـون ترتيبـه الأول فـي السفر للعمل في الخارج . حقاً سافر أخوه الكبير إلى أمريكا للتعلم . ترك كل مكاسبه في مصر : مرتب عـال وشـهادة عالية لكن لم يذهب لاكتساب الرزق ، إنما ذهـب وأسـرته تساعده ولو أنها متشاحنة . وركب الهواء إلى أمريكا ليبـدأ من جديد يعادل شهادته في الهندسة بشـهادة تناظرهـا فـي أمريكا . ثم بعد ذلك يخترق الصخور ليحصل على الدكتوراه في الهندسة . أما هو فقد ركب الهواء إلى السعودية ليعمـل هناك . بعد أن عمل في عدة مشاريع هندسية فـي القـاهرة لكنها لم تكن مجزية وطبيعتهـا مؤقتـة .. وعـده المقـاول السعودي أن يكون مرتبه مجزياً وعمله دائماً . وكـان قـد انتهى من تجنيده فأصبح طليقاً . التجنيد كأس لا بد أن يشرب منها كل أولاد أبيه لأن كلهم ذكور . وقد انتهي أخوه الكبيـر من التجنيد قبله . وها هو أخوه الثالث يحاول أن ينتهي منـه لكن السنين لا تنتهي كأنما هي دهر طويل لا أول له ولا آخر

. وذلك جزاء الذي يتراخى في دراسته ، ويصمم على الفشل مثل أخيه الثالث . ذكي كسول .لا أهمية للمـال عنـده . لا أهمية للوقت . وها هو يترك مصر وأخـوه الرابـع يـدخل الجيش ضابطاً من ضباط الاحتياط مثله ، وليس عسـكرياً مثل أخيه الثالث كما كان أخوه الكبير . ولو أن هذه الصـور تغيرت بعد أن استقر طويلاً في السعودية .

ظن في البداية بعد أن وطأت قدماه مطار الملـك خالـد بالرياض ، أنه سيعمل في هذه المدينة الجميلة . شـوارعها فسيحة واسعة . مطارها رائع . والصـحراء بـين المطـار والمدينة قد امتدت إليها أيادي النبـات . والطـرق زرعـت بالأشجار الصغيرة . واستراحة المقاول نظيفة . في الصباح قال المقاول :

- سوف تسافر إلى الأفلاج .
- وأين تقع الأفلاج ؟ ..
- سوف يأخذك سائق الشركة إليها بسيارة الشركة .

قطعت السيارة الطريق وهي تترجرج . لم تكـن سـيارة فاخرة إنما عرف اسمها فيما بعد " ونيت " . ويبـدو أن الكلمة مقتبسة من اللغة الإنجليزية " ون آت " . ودغمـت الكلمة . أصبحت على ما هي عليه . ويبدو أنه لم يكن سهلاً القول : واحد ثمانية . أخترق السائق الطريق الصـحراوي . وغاص قلبه وسط الرمال المتلاطمة يزحف بعضـها علـى بعض . وترتفع وتتجسد في صـورة جبـل . أو تـنخفض وتتكون في هيئة تل . وبين الجبل والتل جسد أسود ممتد به

تموجات قليلة تصنعها الرمال ويحد معالمها الزلط والحجـر تُسمى طريق .

أخيراً لاحت ليلي الأفلاج . يقال إن ليلي محبوبـة قـيس كانت تسكن هذه الديار .

ووجد نفسه تسكن استراحة تختلط فيها الأجناس : فلبينـي . هندي . فلسطيني . مصري . جاءوا جميعاً لبناء مدرسـة في ليلى . انقبض قلبه وهو يرى حجرته المسـتقلة ، فهـو مهندس المشروع ولا بد أن يكون في حجرة مستقلة .. حتى ترتفع معنوياته ويكون بينه وبين الآخرين حاجز يحافظ على هيبته وسط العمال الآخرين . ويتمكن من الراحـة ليباشـر العمل المجهد تحت الشمس . كثيراً ما اشتغل فـي القـاهرة تحت الشمس ، لكنه في هذه المرة لم يتأكـد أنهـا شـمس . أدرك على الفور أنها فرن عال الدرجة يصب نـاراً فـوق رأسه وقفاه ويلفح كل جسده . وتعرف على العمل الشـاق . وأرسل ومضات من الصبر إلى نفسه . وقال لنفسـه : لقـد صبرت خمسة أعوام من الغربة في الإسكندرية فألا أتحمـل هنا بعض الوقت . وأنا أعمل في هذا الفرن . لكن شتان بين أرض تلعب بها نسمات في الصيف وأمطار فـي الشـتاء . وأرض تلعب فيها أمواج من القيظ في موسم وأمـواج مـن الصقيع في موسم آخر .

حينما حاول أن ينام في الليل . أدرك أن وضـعه تغيـر كثيراً في العائلة . اصبح الأول في ارتياد مجاهل العمل فـي

الخارج .. في مكان بعيد عن العمران . لأول مـرة يـأتي ترتيبه على رأس القائمة.

في الفجر سمع الأذان فأسرع إلـى الوضـوء ، وخـرج يبحث عن المسجد . ولم يتعثر في البحث ، إذ وجده أمامه . ولما دخله شعر أنه أول المصلين الذين وصـلوا . إذاً فقـد اختفت المرتبة الثانية من حياته . وتأكد من ذلك وهو يـدخل موقع العمل في تمام الساعة السادسة صباحاً ، ولم يكن أحـد هناك . واستغرب العمال أن يأتي مهندس المشـروع قـبلهم ..لقد علمه أبوه الدين والتقوى لكنه لم يرث عنه الغضب إلا قليلاً .

وبدا منبسطاً حينما وقع في كشف المرتبات وكان ترتيبه الأول في الكشف .

(٣٦)
الفشل

لا يدري أسباب فشله في الدراسة . وتخلفه عـن أخوتـه الثلاثة دخلوا الجامعة في كلية الهندسة حتى الصغير تجاوزه وألتحق بهذه الكلية . لكن ماذا يفعل وهو يجد الكتاب ثعبانـاً سوف يعضه أو عقرباً سوف يلدغه أو سداً لا يقـدر علـى هدمه . والغريب أنه يقرأ بنهم في كتب لا صلة لها بالدراسة . قرأ في كتب الرحلات والنفط والقصة والروايـة . لكـن حينما تُعرض عليه الكتب الدراسية ينغلق ذهنه ويتلبد عقلـه وتعتريه كآبة حارة لا حد لدرجتها .. كأنها نار الشـمس لا تخبو أبداً .

نصحته أمه أن ينصرف عن الدراسات العلمية ويتجه إلى الدراسات النظرية . وبعد أخذ ورد أنصـاع إلـى رأيهـا . واضطر أن يبدأ من جديد في مدرسة خاصة من السنة الثانية الثانوية ، حيث تبدأ مقررات القسم الأدبي . ونجح في هـذه السنة . وجاء نجاحه بعد ملحق في علم من العلوم .. ولمـا تخطى للمرة الثانية إلى السـنة الثالثـة ، توقفـت ملكاتـه وانصرف عن الدراسة ولا يدري السبب ، حتى واجهه أبوه بالحقيقة قائلاً :

- أن تريد أن تدخل الغم إلى حياتنا .
- ولم ؟ ..
- لأنك تكره الحياة معنا .
- ولم ؟ ..

- لا أعرف . لكن هذه هـي مشـاعرك . وهـذا هـو تخطيطك . أنت ذكي ورغم ذلك كسول . عقليتك لا بأس بها لكن تحاول أن تعطلها . أتدري السبب ؟ ..

- لا ..

- لقد اكتشفت أنك تكرهنا . وتكره نفسك لذلك تريـد أن تدمرها . وتلقي بالقلق والكآبة في حياتنا . لكننا ألقينا طوبتك . ولم يعد يعنينا أمرك . ولن نحاول أن نأخذ الطوبـة مـن جديد . أنت الآن كم مهمل بالنسبة لنا .

تعلق بالعمل الصيفي الذي أمدته به خالته . تعمل مفتشـة لتراخيص الأجانب . كان يمكنها أن تطلـب مـن أصـحاب الأعمال أن يتكرموا ويوظفوا بعض الناس لديهم بناء علـى توصية منها . وأوصت صاحب مطعـم يابـاني أن يلحقـه بالعمل لديه . كان العمل يدوياً أكثر مما هو مكتبـي . لـو أحببت المذاكرة أكثر مما تحب العمل اليدوي لتخطيت حاجز الفشل في الدراسة . وكيف أحبه ؟ .. وكيف أحببت أن تكون نادلاً .؟.. إن مجرد نجاحك سوف يعفيك من سنتين أو أكثر تقضيها في التجنيد الإجباري . وكيف أنجح وأنا لا أستذكر ؟ ! ..

في المطعم الياباني ، كان الجو جديداً . شعر أنه يـدخل دنيا جديدة لا صلة لها بالقديمة . أُثث المطعم أثاثـاً فخمـاً ، فبدا رونقه مبهراً . واختلف الطعام عـن الطعـام المـألوف فظهر مذهلاً . ولأول مرة يـرى الأسـماك تُؤكـل نيئـة . والأصداف والقواقع تقدم علـى الأطبـاق بجانبهـا الزيـت

والليمون لمن يريد . والمشروبات متنوعة والرواد من ذوي العيون المشروطة والقامات القصيرة . ينظرون إلى طـول قامته بإعجاب .

استغرق في عمله استغراقاً لم يشعر به من قبـل . كـان يستيقظ في الصباح الباكر قبل إشراقة الشمس . وكـان مـن قبل لا يراها تتوسط كبد السماء . ويمضي وسـط الطـرق الخالية والمواصلات ذات الزبائن القليلين . وكان من قبل لا يرى الشوارع إلا مزدحمة والمواصلات تئن من الزحـام . ويدخل المطعم لينظف الأرض والموائـد والمقاعـد بهمـة ونشاط . وكان من قبل ينادي على أمه أن تسقيه كأس ماء . وينتظر وفود زبائن الصباح وهم يدخلون على وجوههم نأمة تدل على السرور أو الاكتئاب . وكان من قبل يرى الناس قد كشروا وجوههم واربدت سحنهم . يستقبل الزبائن بعد ذلـك بوجه بشوش . ويحيل الطلبات إلى المطبخ لإعدادها . حركة مستمرة لا تتوقف . قد تخفت في الصباح إذ يفضل الـبعض عدم تناول إفطارهم أو تناوله في بيوتهم . ثـم تصـل إلـى الذروة في الظهر وفي المساء ، لدرجة أنه ينسى نفسه مـن فرط العمل . وكثيراً ما كان يسأل نفسه عن هـذا الإنسـان الجديد في داخله كيف كان وكيف اصبح ؟ .. وأيـن ذلـك الإنسان الخامل الكسول الراغب في اللهو .. بل أين أختفي ؟ .. لا يدري .

في الشهر الأول توجه إلى مدير المحل بناء على طلبه . وكان قد وعده أن ينظر إلى راتبه لو تقـدم فـي العمـل .

وفوجئ به يعطيه مرتباً عالياً أكثر مما كان قد وعـده بـه . ظن أنه سوف يصرفه من المحل إلى الأبـد ذلـك المرتـب المنتظر . وسمع مدير المحل يقول له : أريـدك دائمـاً أن تكون عند ذلك المستوى الذي كنت عليه . وسمع نفسه تحدثه : ماذا لو كان ذلك المرتب العالي مع شهادة عالية معترفاً بها . لكنه هز كتفيه كأنما يؤنب نفسه على هذه الفكـرة : هكـذا جعل الله البشر درجات .. وأنا قانع بهذه الدرجة ! ..

لكن فشله السابق في التعليم طفق يترصده وقذف به إلـى الجيش ، ليجند ثلاث سنوات وشهور . قضاها جندياً بائسـاً يائساً . بعد أن كان يقبض ما يزيد على ثلاثمائة جنيه اصبح يصرف ستة جنيهات فقط . بينما أخـوه الصـغير يلتحـق بالقوات المسلحة ضابطاً من ضباط الاحتياط .

انقضت فترة التجنيد بعد طلوع الروح إلى الحلقوم . ثـم تمكن من السفر إلى أمريكا بعد انقضاء فترة التجنيـد . لـم يصدق وهو يحصل على التأشيرة بالسياحة فـي أمريكـا . هناك سوف يعاونه أخوه الكبير وسوف يتزوج مـن زنجيـة حتى يحصل على الإقامة والبطاقة الخضراء للعمل ويطلقها . وسوف يعمل في أحد المطاعم ولو استمر العمل ليل نهـار . وينقشع صقيع الفشل في هذه الحالة . لكن كل ما لا يشـتهي المرء يدركه . لقد وصل إلى أمريكا . وسكن في حي الزنوج هارلم . لكن في شقة بعيدة عن أخيه الساعي إلى الدكتوراه . ورفض الأخ الكبير أن يعاونه .أخلاقه مثـل أخـلاق خالـه المقيم في أمريكا ، والغريب أنه عارض تصـرفات الخـال

حينما رفض كفالته . وقرر أن يشق طريقه وحده . غضـب الأخ الكبير حينما رفض خاله أن يكفله . والآن لم يغضب من نفسه إذ رفض كفالة أخيه الأوسط ولو لبعض الوقت حتى يقف على قدميه . لم يهتم القادم الجديد إلـى أمريكـا ولـم يغضب ، لم يرث طباع أبيه الغضوب وشق الطريـق وقـد خاصم الأخ الكبير مثلما كان يخاصمه وهو صـغير . الآن يستعرض شريط الذكريات ، فلا يجد الفشل . إنـه يكسـب كثيراً وينفق كثيراً . يقود سيارة أجرة في شوارع نيويـورك ولا يفكر في شهادة عالية . ويرى أن الفشل انـزاح قلـيلاً بحيث يستطيع أن يلتقط أنفاسه .

(٣٧)
الحقائب

كثيراً ما يتذكر أخته الكبيرة ، فهي صاحبة فضل عليـه ، فقد أدخلته مدرسة التجارة في زمن مضى ، وسـاعدته فـي المعهد العالي التجاري مالياً ، وتلمست الطريق إلى عروسه أم أولاده ، تلك الهدية التي يصب عليها جام غضـبه كلمـا غضب من أحد ، دون أن تشكو ، كأنها عامود الملاكمة الذي يلاكمه الملاكم فلا يشكو ، يتمرن عليه حتى يزهق ، رغـم أنه لا يرضى عن نفسه وهو يفعل ذلك ، غير أنه لا يتـردد في كل مرة أن يرتكب نفس التصرف . وينفث فيها الغضب .هذا الطبع الأهوج لا يستطيع أن يفك منه . ويتـذكر أختـه دائماً وأفضالها ، لذلك يحنو حنواً خاصاً على ولدها وابنتهـا

حتى بعد أن ماتت . وقد كبر الولد وتخرج من كلية الزراعة ، وسلك طريق أبيه مفتشاً للأغذية بوزارة الصحة . وكبرت البنت وتخرجت من المعهد العالي للتمـريض ، وينادونهـا بالدكتورة ، رغم أنها في وضع أدني من الطبيب ، وهـاهي تعمل في جدة ، تلك التي قذفته المقادير إليها ، وهـو علـى أعتاب السادسة والخمسين . ولعلها الوحيدة من الأقارب التي يعرفها في جدة . فكانت تزوره ، ثم تعود إلى حجرتها فـي المستشفي التي تعمل بها ، وتبقى وحيدة دون أنيس . تاركـة ولدها وابنتها في رعاية أبيهم الضابط بالقـاهرة . وجـاءت لتحسين مستواها الاجتماعي والمادي .. ولم يتمكن زوجهـا الضابط من مرافقتها ، لأن وظيفته تحول دون ذلك . بل لـم تكن في حاجة إلى محرم ، لأنها تسكن في حرم المستشـفى مع باقي الممرضات والطبيبات اللواتي لا يرافقهن محارم .

انتقل من مصرف القاهرة إلى مصرف جدة .. لكنـه لـم يعمل في المحاسبة أو التنظيم إنما اشتغل في التدريب . كان عليه أن يدرب موظفي مصرف جدة والفروع التابعة له فـي أنحاء المملكة ويضع بـرامج التـدريب ويتابعهـا ويقيمهـا ويوصي بالمدربين اللازمين . ألف وظيفة يقوم بها مما أثار موجات الغضب في نفسه وسكبها علـى مـن حولـه مـن المرءوسين والرؤساء . كان ضغط العمـل يفجـر طاقـات الإبداع في رأسه ، وفي نفس الوقت يفجر الغضب في صدره ، خاصة إذا ما طلب شيئاً ، ولم يلب موظفو المصرف طلبه ، فهو يستشيط غضباً ، ويعنف نقده ، ولا يتورع عن التهديد

بالاستقالة لكن الرؤساء يحاولون تهدئته لأن ثمـرات عملـه كانت يانعات . وأشاد به المتدربون كثيراً . وإذا ما عاد إلى البيت في شارع المكرونة ، واستقبلته زوجته الوحيدة التـي ترافقه في غربته بثها الشكوى ، فإذا حاولت تهدئته ، هـاج وماج ، وانقلب غضبه عليها ، وإذا أكل وشـرب وارتـاح جسده ، أعتذر لها .. فقد أناخ النوم غضبه ، وارتاح جسده من الثورة . ويستغرب بينه وبين نفسه كيف تحملتـه هـذه المرأة هذه السنين الطويلة من الغضب المستمر ؟ .. ويفسر لنفسه أن السبب في ذلك أنها أصيلة ومعدنها طيب . كان من الممكن أن تتركه إلى الأبد ، وتعيش مع أمها بعد موت أبيها ، وتفرق أولادها : اثنان في أمريكا وآخر مستقل يعمل في السعودية والرابع يعمل في مصر ، لكنها لا زالت تشـاركه الحياة . شركة على السراء والضراء . وها هو ينسحب من حياة الضراء ، حيث الفلس ثم الثراء غير الفاحش ، إلى حياة السراء ، حيث الثراء المتزايد .. والنعمة الدائمة ..

ولم يبخل على أهله بهذه النعمـة ، فقـد أرسـل لأختـه المستقلة أن تأتي إليه ، هي وابنه المهندس الصغير وزوجته وولده لقضاء شهر عنده في بيته الواسع في جـدة .. ومنـه يمكنهم القيام بعمرة في مكة المكرمة . لقد تعمـد أن يكـون البيت واسعا حتى لا يلاقي ما لاقاه في هذا الحق الذي يسكن فيه في عابدين . حينما دخلوا ووجدوا الشقة فسيحة ، هللوا . عرفوا أنه تعمد أن يستأجر هذه الشقة حتى ينسى نظيرتها في القاهرة . تلك التي كانت تضغط على أعصابه وتفقده التوازن

والهدوء . ولو أن زوجته تعرف أن الشقة لم تكن السبب إنما كان السبب له صلة بالعقل كما تقول أمها .

وجاءت بنت الأخت الكبرى لزيارتهم . وكم قبلت خالتهـا بنهم كأنها تعوض فيها فقد أمها فقداً كاملاً . فقد ماتت منـذ سنوات قبل أن تموت جدتها وخالتها المكتئبة . وصافحت ابن خالتها وزوجه وقبلتها كما قبلت خد ابنهما الصغير .

وذهبوا إلى العمرة معاً ينهـالون مـن نـور الأيمـان . ويشربون من ماء زمـزم .: ويطوفـون البيـت العتيـق . ويسعون في الصفا والمروة . والابن الصغير يحمل الحفيـد على كتفيه وهو يطوف ويسعى . والأب كعادته مسـرعاً . يؤدى المناسك بخشوع . وينتقل من منسك إلى منسك بسرعة ولا ينتظر أحداً كأنما سيفوته فرض من الفروض . يحكمـه الغضب في تصرفاته كأنما هو جزء منه لا ينفصل عنه .

وكان لا بد أن تقع مشادة بين الوالد والولد ، فهو يطـارد المشاجرات أينما كانت . وإذا لم تحدث خلقها . وكان ذلـك حينما قرأ الابن المهندس أن المصرف الذي يعمل فيه الوالد يطلب مهندساً له نفس خبراته . وعرض الصحيفة على الأب ، فانبرى يعترض . إنهم لن يقبلوا طلبه لأنه ابنه . هـم أولاً يكرهونه لأنه جاد ومجتهد رغم أنه نشيط ومثمر . وهم ثانياً سيرفضون الطلب لأنه ابنه . وممنوع أن يعـين الشـخص أقاربه من الدرجة الأولى بالمصرف . ولكن ذلك يجري على السعوديين وليس على المتعاقدين . لا .. لا .. هذا يخضع له السعوديون وغير السعوديين . ويتهمه الابن أنه لا يريده أن

يعمل في السعودية .. متسرع مثله في الأحكـام وينـتفض ويثور لأهون الأسباب .. أبعد هذا كله لا أريد لك الخيـر . وينقلب الموقف الحميم إلى موقف متفجر .

يغادر الابن وزوجته وابنه وخالته جدة عائدين إلى القاهرة ، وذلك عن طريق البحر . وحملهم حقائب ممتلئة عن آخرها . استلموها عن الأب على مضض ، فليس بعد أن تكفل بهم زهاء شهر أن يأتوا ويرفضوا طلبه . وما في الحقائـب ؟ .. ملابس جديدة .. أدوات جديـدة .. آلات جديـدة . إن نهـم الشراء جعله يملأ الحقيبة بعد الحقيبة . وها هو يجد الفرصة في عودة ابنه إلى مصر فليحمله شيئاً من الغنائم التي أكتنزها .. وتتساءل الأم بينها وبين نفسها : ومتى يستعمل كل هذا ؟ ولم يبق في العمر إلا القليل ، ولكنها عادة الشراء من اجـل الشراء .

وتجئ ابنة الأخت تودع خالتها وابن الخال وزوجه وابنه . وشاهدت الحقائب واستغربت . وسألت :

- ما كل هذه الحقائب يا خالي .
- أشياء مطلوبة اشتريتها .
- كل البضائع موجودة في مصر .
- لا .. أنا اشتري البضائع التي لا وجود لها في مصر . وسوف تحملين أنت الأخرى وأنت عائدة حقيبتين .
- أنا تحت أمرك يا خالي .

وانبرى والغضب يملؤه :

- لكن اعلمي أنك لو سافرت دون أن تأخذي الحقيبتـين سأكون غاضباً عليك .

- من هذه العين وتلك العين يا خالي .

انتشى أن رضخت بنت الأخت العزيزة لمشيئته . ولكـن حينما سافرت إلى القاهرة ، لم تطلبه بالهاتف لتخبره بميعـاد سفرها حتى يستعد بالحقيبتين ، وأحاطت سفرها بسرية تامة .. وحينما سأل عنها في المستشفى أخبره عامل الهاتف أنهـا سافرت . وعاد في ذلك اليوم غاضباً . وقال لزوجه : سوف أقاطع هذه الكلبة العمر كله .

(٣٨)
المتمرد

بينه وبين أي إنسان مشكلة تثير غضبه . وبينـه وبـين زوجه مشكلة حبها لأبنائها خاصة الولد الكبير . وهو يريـد أن يستأثر بها وبحبها واهتمامها ورعايتها . وبينه وبين الولد الكبير مشكلة تحرك الغضب في صدره ، كانت فيما مضـى أنانيته ،وأصبحت الآن استنزاف أمواله . فلا تغرب شـمس شهر إلا وطالبه بمزيد من الدولارات ليواصل الدكتوراه في هذه البلاد الغالية . وزادت مطالبه بعد أن عمل في المملكـة العربية السعودية . وبينه وبين الولد الثالث معضـلة أنـه لا يستذكر ولا يجتهد ولا يعمل ، وبعد أن ذهب إلـى أمريكـا عقب انتهاء فترة تجنيده ، أصبحت المشكلة أن الولد لا يسأل عن والديه ، وأنه ابن عاق ، وولد ناكر للجميل .أما الابـن الصغير فالمسألة المثيرة معه أنه ابن يأخذ وينكر ما يأخـذ . أخذ المهر والشبكة ، وتناول مقدمة لإيجار شقته في حلوان ، ويتقاضى مصاريف نثرية شهرية ، ولكنه ينكر ولا يعتـرف بجمائله . أما الابن الثاني ، فلم تكن بينهمـا مشـكلة تثيـر غضبه ، سوى خضوعه المستمر له ، وكان ذلك يثلج صدره ، لكن لا يمنعه من نقد الولد لأنه يريد أن تكون له شخصـية مستقلة . وحينما سافر الولد المهندس إلى السعودية ، صارت له مشكلة هي تباعده ، وقلة خطاباته ، وتراخيه فـي السـفر إلى مصر كلما أزفت إجازته . وحتى وبعد أن اشـتغل فـي

جدة ، وابنه يعمل في ليلى الأفلاج بالقرب مـن الريـاض ، استمرت المشكلة قائمة بينهما .

وكان الابن الثاني قد امتد عمله في بناء مدرسـة ليلـى الافلاج ، وفوجئ بأنه لا يتبع المقاول الأصلي الـذي تعاقـد معه في القاهرة ، إنما يتبع مقاولاً من الباطن لم يتعاقد معه ، هو الذي يوفر له السكن والمأوى ويعطيه الأجر إذا أعطاه . إذ في كل شهر لم يكن الأجر كاملاً . وأخذ يتنـاقص حتـى اصبح يسمى دفعة تحت الحساب النهائي . وبدأت الشـهور تتأخر وتتراكم حتى بلغت أحـد عشـر شـهراً . وأصـاب المهندس الشاب الضجر ولكنه تحمل . صارت هناك قصص تروى له عن أشخاص حاولوا التمرد على أصحاب العمل ، فلاقوا جزاء بشعاً في السجون ، وأصابهم عقـاب مهـين ، حينما طالبوا بمتأخراتهم . ولو أنه لم يكن متمـرداً ، وقبـل الوضع الجائر بسهولة على أمل أن يرق قلب المقـاول مـن الباطن ويدفع ما عليه ، غير أنه كان يثور بينه وبين نفسه . أو ينفث غضبه المكتوم فيمن حوله ، أو من يصل إلى الموقع من مندوبي المقاول .

وكان قد وصل إلى الريـاض زوج خالتـه الصـغرى ، وخالته وابنتها . حينما قرر المقاول من الباطن الاستغناء عن خدماته ، لانتهاء تشييد المدرسة . وتردد المقاول الأصلي من استبقائه في العمل . وسأل المقاول الأصلي :

- وأجري عن الأحد عشر شهراً .

قال المقاول وهو يغمض عينيه حتى لا يظهر حولهما واضحاً:

- خذه من مقاول الباطن .

سأل مقاول الباطن :

- لم أتسلم أجر أحد عشر شهراً فمتى أتسلمها ؟

قال : إنني أسوي الحسابات .

سأل : ومتى تنتهي تسوية الحسابات ؟

أجاب : أمهلني شهراً .

قال : وكيف أعيش هذا الشهر .

- خذ من صاحب عملك .

- ليس لديه عمل .

- وأنا ليس لدي عمل .

- اعطني من حقي لديك .

- لا اعرف مقدار حقك . إنني أسوي الأمر .

لجأ إلى بيت زوج خالتـه ، وتـرك اسـتراحة المقـاول الأصلي ساخطا غاضباً ، وبدأ يتردد كل أسبوع على مقـاول الباطن ، وفي كل مرة يسوف المقاول وأعوانـه . وأخيـراً أعطاه خمسمائة ريال من الشهور المتأخرة ، حتى يمكنه أن يواصل العيش .

جاء يومها أبوه من جدة لتدريب العاملين فـي مصـرف الرياض . والأشراف على التدريب في موقع التدريب . فقد اعتاد المصرف على إقامة التدريب فـي مواقـع الفـروع . وليس في الموقع الرئيس حيث يمكن أن يستقبل المتدربين من

فروع مختلفة . وانتقل الأب إلى الرياض تاركاً الأم في جدة . وكان عليه أن يزور أخت زوجته الصغرى وزوجها حيث ابنه المطيع يعيش في كنفهما .

وخرج بهما زوج الخالة إلى الأسواق بسيارته ، ليبحثا عما ينقصهما من متاع . وكلما اشترى الابن شيئاً ، اعترض الأب على الشراء . وكلما اشترى الأب شيئاً ، زمجر الابن غضباً . فمادام يعترض عليه ، فليرفض الابن تصرفه .

وقال الأب : أنا أريد أن تحتفظ بالنقود سائلة في جيبك . كل ما تشتريه لا نفع منه . لن ينفع إلا المال السائل . قال الابن : ولم لا تمتنع أنت الآخر عن الشراء . يقول الأب : أنا مرتبي كبير . وعملي مستمر دائم . أما أنت فقد ساب مرتبك . وعملك انتهى ، فأليس أنفع لك مال سائل تستطيع به أن تقيم مشروعاً في مصر . يرد الابن : وهل هذه الريالات القليلة التي اشتري بها صالحة لإقامة مشروع .

ولما حوصر الأب بحجج دامغة ، أراد أن يفلت من الحصار فلجأ إلى الغضب . ويثور الابن . أول مرة يثور . ويكادان يتعاركان في الطريق . يحاول زوج الخالة تهدئة الموقف وأن يوفق بينهما . لكن الأب محتد ثائر ، ويكونون قد وصلوا إلى فندق الأب ، فيتركهم مشوحاً بيديه ويمضي إلى حجرته وهو يسب ويلعن الابن العاق المارق الخارج عن الطوع . كان يظن في يوم ما أن هذا الابن المطيع سيبقى إلى الأبد مطيعاً لكن ما حدث مذهل يدل على أنه اصبح متمرداً .

(٣٩)
الخلاص

تشعر كأنها تتحرر من قيودها ، وهو خارج البيت . ولما كان التدريب في المصرف لا مركزياً يسافر له لا يأتي إليه . صارت تتمتع بأيام من الراحة حلوة . تعرف أنها لن تدوم ، لكن لا بأس أن تنهل من نهر الراحة خلالها . فقد كان الزوج الشرس يغيب بالأسبوع أو أكثر منه . حينما يقام التدريب في خميس مشيط أو الرياض أو حائل أو تبـوك . أو المنطقـة الشرقية . حينئذ تعرف أنه لن يعود إلى جدة إلا بعد أسبوعين أو أكثر . فتهنأ بالنوم الطويل وبالأكل البسيط والنزهة الخالية من المتاعب والتعب . كان حينما يستيقظ يطالبهـا بإعـداد الحمام له ، وترتيب ملابس الخروج ، وكيهـا ، وتنسـيقها ورشها بماء الورد ، حتى تكون على أتم الاستعداد للارتداء . بل قد يطلب منها أن تدخل الجاكت في يديـه . مـدلل منـذ الصغر ، ولا يزال مدللاً . ويرش وجهه الحليق بماء الـورد أو ماء البنفسج . وعادة ما يكون ماء مستورداً . وعادة مـا يتأمل وجهه الغليظ في المرآة . أين ذهب الوجه السمح ؟ .. لقد اصبح كالخنزير . حقاً يحافظ على قوامه إلى حـد مـا ، لكن الإفراط في الطعام النشوي حوله من قوام معتـدل إلـى قوام بدين . وعادة ما يغضب مـن ترهلـه فيصـيح : لقـد أصبحت خنزيراً . وحينما يعود في المسـاء يبـادر بالنـداء الغاضب بإعداد الطعام . دائماً متسرع يريد أن يقضى أمـره في زمن قياسي . ويخرج معها إلى الأسواق ليركز النظـر

على أنواع الروائح والعطور والساعات الفاخرة والملابـس الأنيقة . ولا يتورع عن الشراء لأول وهلة لها أو له ويند ـم بعد ذلك . وتتكدس البضائع الجديدة بمرور الوقـت فيـأمر بوضعها في حقائب جديدة . ولا تدري متى سيتم اسـتعمالها أو استغلالها . إنه يشتري للتخزين لا للاستمتاع بما يشـتري .وعادة ما تخرج من المشاوير بتعب في قدميها وتعود منهكة من كثرة المشي . ويعود هو ليشكو من ألم حاد في ركبتيه . يشكو من نفس المرض الذي كانـت تشـكو منـه أمـه ، وصارت مقيدة بسببه بالفراش . تزحف ولا تمشـي . هـل سيكون ذلك هو مصيره ؟ .. إنه يمشى حتى يخف وزنـه . ويتخلص من بعض الأسقام .

في فترة غيابه تهدأ وترتاح ، وتنتهي علاقتها بـالأوامر والنواهي . فهي تعرف إذا لم تنفذ أي أمر من أوامره يثـور ويغضب .. رغم تقدمه في السن لم يهدأ أبداً .ولم يحدث لـه اتزان ، لذلك فهي تهنأ حينما يغادر البيت في رحلـة عمـل طويلة الأجل ويتركها وحدها في الشقة الواسعة . أصـبحت تستمرئ الوحدة .. بدلاً من استمراء عشرته .ولم تعد تسـأل نفسها : لم ترضى بهذه الحياة المهينة ولا تهرب منهـا ؟ .. أصبحت تعيش هذه الحياة بحلوها ومرهـا ولا تفكـر فـي الخلاص منها .

وجاء ليبقى معها أياماً ابنها المهندس ذو الحظ المحدود . جاء لأداء عمرة ويرحل بعد ذلك إلى مصر . يبحث فيها عن عمل مجز ومنتج ، فأضأ حياتها بالبهجة . وخفف كثيراً من

ببرودة الوحدة وآلام الغربة . جاء بعد أن غضب منه والده ثم صالحه قبل أن يغادر الرياض . وكان يعـيش فيهـا علـى أعصابه ولا يعرف هل سوف يسترد مرتب أحد عشر شهراً متأخرة أم ستضيع عليه . ولا يعرف ما إذا كانت سترد إليه أم أن المقاول من الباطن سوف يبتلعها . وفوجئ بأن المقاول يحمله مكالمات تكلمها مصريون في الهاتف المباشر ورحلوا قبل دفعها . وخصمها منه وعليه أن يلاف عليهم لتحصـيلها منهم في مصر ، فهو مدير المشروع وكان عليـه أن يتنبـه لذلك . وخصم منه قيمة كابل قطعه العمـال الفلينيـين فـي الموقع بجراراتهم الثقيلة ، فكان عليهم أن يتحملـوا جميعـاً قيمته ، ويتحمل هو جزءاً منه على إهماله فـي المراقبـة . ويفاجأ المهندس ذو الحظ المحدود بان الأحد عشـر شـهراً تقلصت إلى خمس شهور . وأخذها وهو يقول : شعرة مـن جلد الخنزير . ودعاه والده إلى جدة ليبحث له عـن عمـل هناك . وفتح له المقاول الأصلي التأشيرة بأن يذهب ويعـود خلال ستة شهور ، ولكنه كان ينوي أن يمضي ولا يرجـع أبداً .

أمضى الابن المطيع وقتاً طيبا مع أمه ، ثـم ودع أبـاه ، وعاد إلى الرياض . وفي دار عديل أبيه ، شرع يرتب حقائبه .. تلك التي بلغت ثلاث عشرة حقيبة . واتفـق مـع شركة النقل الجماعي على السفر ، وحمل الحقائب بسـيارة المقاول الأصلي "الونيت " ، ولم يرض أن يسـتعمل سـيارة

العديل لأنها لا تكفي لابتلاع كل هذه الحقائب ، ومنها إلـى سيارة السفر عائداً إلى أرض الوطن ..

أخيراً تخلص من عبء كئيب كان يرقد على صدره . يضغط عليه ولا يهنأ في نومه . كابوس الإفلات من قبضة المقاول الذي كان يجعل أعوانه يروون له القصص المرعبة عن مصير هؤلاء الذين يتحدون إرادات أصحاب الأعمال . وكان الصبر على ذلك المقاول ومعاملته باللين خير دواء .

(٤٠)

التسرع

هذه هي الإجازة الثانية .. خلال ثماني سـنوات . ابتعـد فيها عن مصر . الإجازة الأولى قضاها مرافقاً للمشرف على رسالة الدكتوراه .. حتى لا يعطلها أكثر من اللازم ، ولكنـه عوق في مساراتها . لقد اشتم من مواقفه الكثيرة أنه يتعمد أن يعطله . أيكون ذلك بسبب أنه مسلم والمشـرف يهـودي لا يرضى لمسلم أن يعلو ؟ ! .. ربما .. وقـد يكـون السـبب الواضح أنه يقدم له خدمات علمية ثمينة فلو حصـل علـى الدكتوراه سوف يفتقد هذه المعلومات لأنه سوف يتوقف عن إمداده بها ، فيخسر المشرف مساعداً دءوباً . ولـولا أنـه يعرف أن أباه سوف يتكفل بهذه الرحلة . ولن يغـرم جيبـه شيئاً لما رافق الرجل أبداً ليرى مصر .. آخـر ابتـزازات الرجل واستغلالاته . كان يظن أن العالم الأول خال من هذه السيئات لكنها موجودة في كل مكان وفي كل عصر . وقـد تكون في العالم الثالث تضع قناعاً وتتنكـر بقـوة وأفرادهـا

كثيرون ، لكنها في العالم الأول تخص أفراداً قلائل وتأخـذ طابعاً مستتراً متخفياً .

أما هذه المرة فهو يأتي بمفرده . وقد انتهي مـن إعـداد الرسالة وطبعها وتحدد موعد المناقشة بعد شهر . كان سعيداً للغاية . أخيراً بلغ المنى . سوف يجعل أمه تبلـغ خالـه أن ابنها الكبير قد حقق المراد . واصبح دكتوراً . ولم يرتكـب جرماً طوال إقامته في أمريكا . سوف يعلم أن الولـد الـذي تنكر له خاله ورفض أن يكفله أثناء دراسته في أمريكا كفالة صورية زعم أنه قد يرتكب مخالفات تضج مضجعه اصـبح الآن متساوياً معه .. بل يفوقه . فالدكتوراه التي حصل عليها الخال في الدراسات النظرية . أما هو فإن الـدكتوراه التـي حصل عليها خاصة بالدراسات العملية .

لم يحتاج في المرة الأولـى أن يمـر علـى القنصـلية الأمريكية ، لأن جواز السفر كان مجدداً . ولا يعـرف مـن الذي أشار على أبيه أن يوصـيه بـالمرور علـى السـفارة للحصول على التأشيرة أو تجديد التأشيرة القديمة . حينما دفع جواز السفر إلى موظف القنصلية الأمريكيـة تـذكر ذلـك المستشار الذي استقبله في أول سفرة وسأله : لم تذهب إلـى هناك ؟ .. أجاب : أسافر للسياحة . قـال المستشـار : لـو اتضح أنك كنت مسافراً لغرض آخر فسوف لن تحصل على التأشيرة مرة أخري . قال له : ليس لي غرض غير السياحة . وكأنما ذلك المستشار كتب اسمه في قائمة سوداء يحـتفظ بها وظل يتذكره ، فقد غادر القاهرة وعاد إليها وما تـزال

هذه القائمة السوداء يحتفظ بها ، إذ وجد أنه قد أشـر علـى جواز السفر بالرفض . وحينما طلب مقابلته . قال له : لقـد خدعتني . زعمت أنك سوف تدخل أمريكا لمدة شهرين . وإذ بك تمضى بها ثماني سنوات . قال بهدوء : كنت أتعلم . وقد أتممت رسالة الدكتوراه وسوف أناقشها بعد أسبوعين . قـال المستشار بتعنت : وأنا لا أوافق على دخولك أمريكـا مـرة أخرى . قال : أنت تصادر حقاً من حقوقي بهذه الطريقـة . قال بجفاء وكبرياء .: أفعل ما بدا لك .

بحث عن أبيه يستشيره وكان في إجازة سـنوية حصـل عليها من مصرفه في جدة ، فأشار عليه أن يرسل برقية إلى الجامعة يبين لها سوء مسلك المستشار . وأن يرسل برقيـة إلى وزارة الخارجية الأمريكية يتظلم فيها من رفض التأشيرة الظالم ويبين فيها مبررات عودته إلى أمريكا مرة أخرى .

مضى الوقت بطيئاً مملاً كئيباً . وشعر أن كل ما بذله من جهود سقط في بئر عميقة لا قرار لها ولا يمكن انتشال شيء منها . حتى لو تمكن فإن ما فعله سوف يلوث برائحة البئـر العطنة ، تلك الرائحة التي تفـوح مـن البئـر . أضـاعت الدكتوراه بهذه السهولة بسبب تعنت إنسان حاقد ؟ ..

لاحت له بارقة أمل . سوف يجبر بها المستشـار علـى عودته . سيتحداه إلى آخر مدى .وخرج ليرسل برقية إلـى فتاة تعمل في الجامعة . كان تستحثه على الاقتـران بهـا . أمريكية إذا تزوجها فلن يمنعه أحد من الدخول إلـى الجنـة الموعودة . سيتزوجها في القنصلية الأمريكية ذاتهـا . لكـن

أليس هذا أمراً لم أكن أرضاه من قبل . إنها ضرورة حتى لا أفقد الدرجة الجامعية ، لكنك كنت مترددا من قبل ، وتأبى أن تقترن بها . إنها القشة التي يتمسك بها الغريق .

وتم عقد القران . وخرج من القنصلية وقـد شـعر أنـه منتصر .

في صباح اليوم التالي . تلقى برقية من وزارة الخارجيـة الأمريكية تعتذر عن تعسف المستشار القنصلي . وتلقى برقية من الجامعة تأسف لما حدث وتخطره بالتوجه إلى القنصـلية لاتخاذ الإجراءات القانونية . وبرقية أخرى مـن القنصـلية الأمريكية بالقاهرة تعتذر وتدعوه للحضور للحصـول علـى التأشيرة .

نظر إلى زوجه . وأدرك أنه تسرع في هذه الزيجة . كان كل شيء سيتم على هواه .. لكنه تسرع . إنـه أهـوج فـي تصرفاته مثل أبيه . لكن ما باليد حيلة .

(٤١)
الذراع

لم يكن يعرف في يوم من الأيام أنه سيحتاج إلى عديلـه بهذه الطريقة . كان يغير منه مثلما كان يغيـر مـن أخـي زوجته . فالأخير استطاع أن يتخطى كل العقبات وسافر إلى أمريكا وحصل على الدكتوراه وتزوج - للمـرة الثالثـة - بأمريكية . زواجه الأول فشل وأثمر بنتاً . وزواجه الثـاني أيضاً لم يثمر شيئاً . أما زواجه في أمريكا فقـد أثمـر بنتـاً وولداً . وكعادة الأجانب رفضـت زوجتـه أن تزيـد فـي الأولاد. المدنية تمنعهما من الإفراط في الإنجاب . واسـتقر في أمريكا بعد قضاء ثلاث سنوات في مصر . شعر أن أخا زوجته تفوق عليه وكانا معاً في كلية التجارة . لكنه هو لـم يتزحزح عن بضعة دبلومات ولم يتحقق الأمل في دكتـوراه يتمناها بشدة . أما الأخر فقد اقتنص الفرص وعـلا مرتبـة وعلماً ودرجة . أما الأول - عديله - فقد صبر طويلاً حتى تمكن من الحصول على الدكتوراه في الحقـوق ، وغـادر البلاد للعمل خبيراً في السعودية قبله بسنوات فكيف لا يغـار منه ؟ ..وها هو يحتاج إليه بعد أن نُقل إلى الريـاض . بـل نُقلت إدارة التدريب بأسرها إلى المركز الرئيس للمصـرف في الرياض . وصار بالقرب من العديل . وطلـب منـه أن يشتري برفقته موكيت شقته . وأن يشتري برفقته أثاث شقته . إذ ليس لديه سيارة رغم أنه حصل من مرور جـدة علـى رخصة قيادة غير أنه امتنع بخلاً عن شراء سيارة ولا تـأتي

في أولوياته . بل سكن بالقرب من المصرف حتى لا يتكبـد مشقة النقل ومصاريف الانتقال . وطلب من عديله أن يـأتي إليه ثلاث أيام في الأسبوع ليتفرج هو وزوجه على الأسواق .وكانت حمى الشراء تدفعه لأن يجتني أشياء كثيرة لازمـة وغير لازمة ، فكان الرجل لا يمانع أبداً . ويصحب زوجته وابنته معهما في هذه الرحلات الأسبوعية . ويمكن فيهـا أن ينتقل من جنوب الرياض إلى شمالها .. ومن شـرقها إلـى غربها .. رغبة في تحقيق مطالب المصـرفي الغضـوب . وكل ذلك بسيارة العديل .

وكان العديل يعرف أنه يغار منه ، بل ويحسده على مـا فيه من نعمة . ويحسده على راحة البال وهو لا يرتاح بالـه أبداً ويستغرب كيف لا يوجد ما يقلق راحة ذلك العـديل أو يثير غباراً في حياته . ولا ينسى أبداً أنه طلبه مـن جـدة ، وقال له :

- إن ابني المطيع الأمير .. قُطعت ذراعه .
- ماذا تقول ؟ ..
- قُطعت ذراعه .

كاد العديل يبكي في الهاتف ، لولا أنه واصـل الحـديث قائلاً :

- لولا أن الله سلم . استطاع الأطبـاء أن يعيـدوا إليـه ذراعه المقطوعة .. نقلته إلى أسبانيا للعلاج هناك .
- ماذا حدث ؟ ..

- كان يعمل مع صديق له يريد أن يقيم معرضاً . سقطت لوح من زجاج على كتفه ، مزق ذراعه وفصله عن كتفـه . وبسرعة تمكن الأطباء من إسعافه ولحم الكتـف بالـذراع . ونقلته إلى أسبانيا حتى يتم العلاج على خير وجه . وهنـاك تم علاجه وأعيد الذراع إلى الكتف بدقة .

- الحمد لله .. الحمد لله . .

نطق الرجل الكلمات بصعوبة وفيض من الدموع يسـيل من عينيه . وقفل الهاتف وهو يشعر بالراحة لنجاة الولد من الخطر . وشعر الأب بالراحة هو الآخر إذ نقل طرفـاً مـن مصائبه لهذا الرجل الذي لا مصائب عنده . كيـف يتحمـل الآلام وحده دون مشاركة من الآخرين ؟ .. وقد كذب علـى عديله وأدعى أن العلاج تم في أسبانيا وأن المعـرض كـان مقاماً في جدة . جاء إليه من مصر زيارة لأبيه ثم اشترك فيه . ولكن الحقيقة أن الولد المطيع كان قد سافر إلى أمريكـا ، واشتغل بعدة أعمال حتى وجد ذلك المعرض الذي تعـرض فيه لهذه الإصابة البالغة ، وأرسل أخوه الدكتور فاكساً إلـى أبيه ليسعفه بالمصاريف الطائلة . ولم يبخل الأب على علاج الابن المطيع الذي لم يتمرد إلا مرة واحدة . لكن هل يعـيش في الألم وحده . لا .. لا بد من مشاركة الآخرين .

ولم تكن هذه الكذبة الأولى لرجل يصلي ويصوم وعرف أنه كان عضواً في جمعية الأخوان المسلمين يومـاً مـا ثـم انقطعت علاقته بها . إنما كانت هناك كذبة أخرى أذاعتهـا زوجته في الرياض . كانت عن ابنها الثالـث فـي ترتيـب

الأبناء وقد فشل في دراسته وتم تجنيده أكثـر مـن ثـلاث سنوات ثم انتهت فترة التجنيد الإجباري وسافر إلى أمريكـا وعاش هناك . وجاءت فترة القطيعة بين العـائلات حينمـا رفض أخوها أن يكفل ابنها الكبير أثناء تعلمه في أمريكـا . فادعت أن ابنها مرة سافر إلى اليونان ، ثم ادعت مرة أخرى أنه سافر إلى اليمن ، وأنكر الزوجان بعد عودة الوفاق بـين العائلات أنه سافر إلى أمريكا . وقد عاد الوفاق بعد انقطـاع طويل من السنوات بسبب تغرب العديل في السعودية وعودته في إجازة فاضطروا لزيارته ومشاورته في شأن سفر الرجل الغضوب إلى جدة والعمل هناك وما إذا كان المرتب مجزيـاً أم أن المصرف خدعه وطمأنهما . . لكن لم الكذب ؟ .. إنه هاجس قديم . هاجس أن تلحق بهما عـين الحسـد . إنهمـا يخشيان من الحسد . هو عدوهما اللدود . ولو عرف النـاس أن ابنهم الكبير الحاصل على الـدكتوراه . وابنهمـا الثـاني المهندس المهاجر ، وابنهما الثالث المسرح من الجيش كلهـم يعيشون في أمريكا . أرض الحضارة الجديـدة .. فسـوف يوجه الناس سهام الحسد إليهم جميعـاً ولسـوف يصـابون بمكروه . بل سوف يصابان في عافيتهما أو صـحتهما دون أدنى شك . وهذا الإخفاء – إخفاء الحقيقة – ليس كذباً إنما هو وقاية من الحسد . وكان الزوجان يعرفان أن سرهما سـوف ينكشف يوماً ولكن في تأجيل افتضاحه تدارك للخطر الداهم . وكانا يعرفان أن افتضاح الكذب لن يحدث إلا من أمر واحد هو عودة ابن العديل من أمريكا . فهو الوحيد الذي يعـرف

السر . حيث سافر بعد حصوله على الثانوية العامة مع أبيـه - وكان قد ذهب إلى أمريكا في بعثة تدريبية وأخذه معه قبل أن تطأ قدماه السعودية – وتخاف الابن هنـاك لينهـل مـن أرض الحضارة غير عابئ بمستقبل علمي أو مادي ولا يزال يعيش في نيويورك واتصل بابن خالته وهو يعد الدكتوراه ولا بد أنه سيلاقي ابني خالته الآخرين . لـذلك حـاول طالـب الدكتوراه أن يأمر بوقف توصيل هذه المعلومات إلى ذويـه على اعتبار أنها من الأسرار العائلية التي لا يجوز إفشاؤها ، وأن السر قد يصل إلى خاله الكريه فيبلـغ الشـرطة عـن الوالدين المتسللين مثله فيضيعون جميعاً .

ولما نُقل الأب الغضوب إلى الرياض سأله العديل عـن ابنه المصاب ، قال :

- لقد عادت الذراع إلى الحياة . هؤلاء الأطبـاء كـانوا مهرة لدرجة إعادة الذراع إلى الكتف وإعادة الحيوية إليهـا ولو أن وظيفتها بالعلاج الطبيعي قد تصل إلى ثمـانين فـي المائة من قوة الذراع الأصلية .

سأل العديل :

- وكم تبلغ قوتها الآن ؟

- يبدو أنها ثلاثون في المائة فقط .

لا يريد أن يتلقى حسداً جديداً فإن النسبة الأخيـرة تثيـر الشفقة . أما النسبة الأولى فتحـرك جبـال الحسـد لتسـقط عليهم .

(٤٢)
العودة

قضى سنتين في جدة من أمتع أيام حياته . وقضى سنتين في الرياض من أشق سنوات حياته . كان الرؤساء في كل يوم في مشادة معه . ويهددون في كل يوم أنهـم سـوف يلغون إدارة التدريب . أو أنهـم سـوف يعرضـون عـدد موظفيها إلى الانكماش . رغم أنه اصبح مدير إدارة التدريب لا خبير تدريبي فقط . ورغم اعترافهم بجهوده فـي إحيـاء الإدارة وتنميتها ، غير أنهم يلمحون أن عقده على وشـك أن ينتهي . ويفسره هو أنه حقد عليه وغيرة منـه لأنـه ذكـي ولماح ولو أنه عصبي وأهوج وغضوب . وكان يعود كـل يوم إلى بيته ، ويوجه قرفه من الإدارة العليا فـي شـخص امرأته المسكينة . وكانت برغم غضبه الـدائم تقـوم ببـث الصبر في فؤاده قائلة :

- لقد حصلنا على كل ما نرغب .. فلا أهمية لبقائنا .

وكانت تشكو مخاوفها لأختها إذ قام المصرف بإنهاء عقد زوجها وتقول بأمل :

- لا يمكنهم قطع رزقه .. الله هو الرزاق .

ثم تتناقض مع نفسها فتقول :

- لو أعطونا كل شهر ألف ريال وتركونا نحيا في هذه المدينة الجميلة لقبلنا .. لا تلوث .. ولا زحام .. ولا غلاء ..

ثم تعود تقول :

- تغور نقودهم .. إنهم يعطوننا النقود في أول الشهر وقبل أن ينتهي الشهر تكون كلها قد صرفت .

وكان زوجها في بداية عمله بالسعودية يشكو من مصاريف طالب الدكتوراه الشهرية ، حتى حصل على الدكتوراه فحول الشكوى إلى معاملة رؤسائه له وتعنتهم في المعاملة . وقابل عديله يوماً من أيام الأسبوع . وراح يقول :

- بلغني اليوم أن العقد قد انتهى وعلينا أن نعود إلى مصر .

يسأل العديل :

- ألا يمكنك أن تجد عملاً آخر في مصرف آخر .

يقول بيأس :

- لقد قرفت وأريد أن أعود .

ولم يكن العديل يميل إلى الجدل معه فكان يقول :

- على راحتك .

ثم طلبه هاتفياً وقال له :

- تم مد العقد ثلاث شهور .. وبعد ذلك نعود . تحججوا في البداية ببلوغي سن الستين ، مع أن هناك مستشاراً بلغ الثانية والسبعين لا يزال يعمل بالمصرف . واضطروا لمد العقد ثلاث شهور حتى لا يحدث فراغ في إدارة التدريب . ويتمكنوا أن يعينوا مديراً جديداً . كل ما يضايقني أنني سوف أبقى كالنساء لا عمل في مصر . فقد تمت تصفية معاشي في مصر .. وها هو العمل في السعودية ينتهي .

ولما وصل وزوجته إلى مصر ، تلقي العديل فـي عيـد الفطر المبارك بطاقة تهنئة صادرة من الساخط أبداً النـاعي على حظه دائماً ومثبتاً بها أنه اصبح مدير فـرع مصـرف استثماري كبير في مصر . فلم يجد غير أن يقول : يا له من رجل .

(٤٣)

الشقة

حلمه منذ الطفولة أن تكون له شقة واسعة . ولكن الحلم لم يتحقق إلا مؤخراً . وحقق الحلم وهو يعمل في جدة ، فسكن شقة من أربع حجرات واسعة ، كفته هو وزوجه كفاية تامة ، حتى شعر بالامتلاء . وحقق حلمه مرة أخرى حينما نقل إلى الرياض ، واضطر أن يسكن في شقة جديـدة أمـام البريـد المركزي بشارع المطار ، وكانت الشقة أقـل اتسـاعاً مـن الأولى لكن حجراتها كبيرة . ولو أنها تقتصر علـى ثـلاث حجرات وصالة . وفكر وهو يجد المناوشـات بينـه وبـين المديرين تستعر ، أن الوقت قد حان ليملك شقة واسعة فـي القاهرة ، فالمال اصبح وفيراً ، ولكن المانع هو وجوده فـي الرياض ، لذلك قرر أن تسافر زوجته إلى القاهرة ، لتبحـث مع ابنه الأصغر عن الشقة الحلم . حلم حياتـه . وصـارت الزوج تبحث وتنقب وتتصل بزوجها هاتفياً تخبره عن الشقق التي تصادفها ومساحاتها وأوصافها ، وهـو يـرفض كـل العروض ، فهو لا يعجبه العجب ولا الصيام في رجب كمـا يقول المثل السائر . وحينما عادت نفر عرق الغضـب فـي

رأسه ، وتشاجر معها لأنها لم توفق في العثور على الشـقة الموعودة ، هي وابنها ، وتكلف آلاف الريالات من أجل ذلك . وأعلن ندمه على السماح لها بالسفر ، وهي تعـود بخفـي حنين وخالية الوفاض ، ولا تستأجر حتى شـقة . واشـتعل الشجار بينهما واتهمته أنه رفض كل العروض .ولا سـبيل لإرضائه أبداً .

غير أنه في إجازته الأخيرة اكتشف ضـالته فـي موقـع ممتاز في مدينة نصر . كانت مساحة الشقة فيه تزيد علـى مائتين وعشرين متراً مربعاً . غير أن عيبها أنها تقـع فـي الدور السابع من العمارة . وقال تبريراً لذلك : أحسن حتـى تكون بعيداً عن الضوضاء . ونسى ذلك العيـب إزاء وسـع الشقة . وصار يمدح نفسه كل يوم ويذم ابنه وزوجته لأنهما لم يعثرا على مثل هذه الشقة . وهو الوحيد الذي عثر عليها . ولما صار الفخـر ممجوجـاً ، غضـبت الزوجـة منـه ، وخاصمته ، غير أنه صالحها ، وكتب عقد الشقة باسـمها . كان يخاف أن تضيع منه شقته الصغيرة المستأجرة الواقعـة بعابدين القريبة من وسط البلد . إن ذلك موقع ممتاز فعلاً فلا يجوز التفريط فيه . وإذا طالبه صاحبها باستردادها أجابه أنه لا يملك أو يستأجر غيرها في القاهرة . أمـا هـذه الشـقة الجديدة فهي تقع في مكان متطرف بعيد ومملوكة لزوجته .

والغريب أن يلاحظ الأهل والأصدقاء أنه لم يسكن الشـقة الفاخرة سكناً دائماً . غير أنه ملأها بالأثاث الفخم ، والتحف الرائعة ، تلك التي جمعها في أسـفاره المختلفـة ، وأحـاط

حوائطها بالزرع الحي ، وصار يحج إليها كل جمعة وسبت لري الزرع . والمبيت المتقطع فيها . أما باقي الأسبوع فصار يقضيه في شقته القديمة الصغيرة ، ذات الأثاث الرديء ذي العمر المديد ، وحوله كل الحقائب التي أكتنزها في الغربة لم يفكر في فتحها . ومن حين لآخر كان يلتقط منها تحفة أو أداة لوضعها في الشقة الجديدة .

ولما سأله ابنه الصغير :

- ولم اشتريت الشقة ما دمت لا تعيش فيها ؟ ..

أجاب وهو يبدي استياءه من السؤال الجريء :

- يوماً ما سوف نسكنها . أما الآن فإن الوصول إلى المصرف الذي أعمل فيه بالسيارة اصبح عسيراً . ولا يعقل أن يدخل مدير المصرف متأخراً عن باقي الموظفين ، لذلك فضلت هذه الشقة لأنها بالقرب من وسط المدينة ، فأصل المصرف صباحاً مبكراً .

يتكلم دائماً بلهجة مليئة بالغضب ، وبصوت عال كأنما يحاول أن يقنع المتكلم بكلامه . وهو هكذا يعتقد أنه على حق ولا يقول غير الحق ، مهما كان الخطأ الظاهر في كلامه أو تصرفه . فما كان من الابن الذي ورث عنه الغضب في بعض الأحيان إلا أن يقول :

- إنها أموال ضائعة لن يستفيد منها أحد .

يزمجر قائلاً :

- يوم أموت .. تصرف فيها أنت وأخوتك .

غير أن الابن نظره بصرامة ولم ينطق كأنما يقول لـه : أنت لن تموت . وقد نموت قبلك . وهو يعرف أنه يشكو من علل قديمة وجديدة . فهو يشكو منذ سنين من ارتفاع اليورك أسد في الدم ، حتى قال له الطبيب إن جسد مصنع لهذه المادة . ويشكو من أن وظائف الكليتين لا تعمل بشكل جيـد . وأن المياه البيضاء تزحف إلى عينيه ، لكنه صامد يعمـل بجـد واجتهاد . لا يوقفه مرض ولا تهده علة . ولا يزال ينـاقش بعصبية وبصوت عال كأنما يريد أن يقنع محدثـه بوجهـة نظره أو أنه على حق .

وشكواه الآن لا تقتصر على المرض الذي يعاني منه فقط . إنما تمتد إلى أبنائه . هو لا يزال يشكو من ابنه المقيم فـي أمريكا ، إذ لم تفرط فيه الولايات المتحدة بسبب ذكائه النادر . وبدلاً من أن يعود بعد انتهاء رسالة الدكتوراه ، ارتبطـت به ولاية نيويورك بعقد دائم على أن يشرف علـى السـلامة الصناعية للمصانع بها . وكانت رسالة الدكتوراه تدور حول ذلك الموضوع . ولما تزوج تلك البروتروكية قسراً وبإلحاح من الظروف لم يفكر أن يطلقها . إنها كانت أسرع منه فـي انتهاز الفرص فأنجبت منه بنتاً . ولم يساعده حصوله علـى الإقامة واكتساب الجنسية أن يتحلل من تلك الرابطة . وقـد دعاه والده أن يعود إلى مصر وزين له الإقامة في شقة مدينة نصر غير أنه رفض أن يعود . ودعـاه أن يعـود ويعمـل بالجامعة الأمريكية حينما لاحت له وظيفة فيهـا ، غيـر أن الابن لم تغره تلك المغريات .

واستمرت الشكوى من ابنه الثاني الذي ترك السعودية ومصر ولحق بأخيه في أمريكا . ولم يعمل مهندساً لأن شهادته تحتاج إلى معادلة لم يتمكن من الحصول عليها واشتغل قائداً لسيارة أجرة . وتزوج قبل ذلك من هندية لها أطفال ، حتى يتمكن من الحصول على الإقامة في الأرض الموعودة . وناداه أن يعود ، وأن يشتري له شقة في مصر العزيزة ، غير أن الابن رفض ، واشترى له شقة بالفعل كان متعاقداً عليها قبل أن تشيد بناء . غير أن الابن عشق أمريكا كأخيه الكبير وصمم على البقاء فيها .

واستمر يشكو لكن هذه المرة من ابنه الثالث . وتنبح الشكوى في صدره من ابنه الفاشل في التعليم المهاجر إلى أمريكا هو الآخر . دعاه أن يعود ويترك له شقته القديمة ، ويسكن هو في شقة مدينة نصر . لو كان يريد أن يستقل عنهم . لكن أعجبه أن يكون سائقاً - مثله مثل أخيه المهندس - لسيارة أجرة . ويبقي في نيويورك ويتزوج من مضيفة مصرية تطلع إلى البقاء في أمريكا . هي مصرية قدمت بحجة السياحة في أمريكا . غير أنها صادفته وتحابا و تزوجا، وكانت قد تركت وظيفتها بسبب حرب الكويت وكانت تتمنى أن تتزوج من أمريكي مصري لتعيش في أمريكا . وقد اكتشفت أن الزوج لم يحصل بعد على الجنسية . وعليها أن تنتظر دهراً حتى يحصل على الجنسية فتكتسبها بناء على ذلك . ولم يكن الابن قد حصل على الإقامة في أمريكا إلا بعد أن تزوج من زنجية طلقها بعد سنة من

الزواج بعد حصوله على بطاقة العمل البطاقة الخضراء كما تسمى في أمريكا . وهكذا ارتبطت به هذه المضيفة التائهـة في نيويورك ، الطامعة لأن تبقى في هذا البلد الرائـع إلـى الأبد . لو تمكنت ولا تعود إلى مصر . وضـاعت نـداءات الأب لأبنه أن يعود .. لكن بينه وبين نفسـه يسـأل : مـاذا سيعمل حينما يعود ؟ .. خير له أن يبقى في أمريكا على أن يعود . لكن الأمر تخفت حرارته باسـتمرار ولا يكـون إلا مصدراً للشكوى فقط يجتره الأب كهوايـة مـن هواياتـه : الشكوى المستمرة . ثم التحول إلى الغضب .

أما الابن الرابع فقد اصبح لا يطاق . يحاول أن يفـرض وصاية على أبيه . والأب يرفض بشدة هذه الوصاية . يتدخل في اختيار الشقة .. يلمح أن عدد التكييفات كثير . يتدخل في تأثيث الشقة ويبدي آراء لا يؤخذ بها . ويزعم أن سعر الشقة مغال فيه لأنه مهندس مبان ويعرف جيداً الأسعار . والتحف في البيت لا داعي لها لأن بين أبيه وبين الموت خطـوات . فلم لا يترك الأموال للورثة حتى يتصرفوا فيها دون خسـارة . وفُجع الابن حينما أعلمه أبوه أن الشقة مكتوبة باسم أمـه . وتمنى الأب أن يسافر الابن إلى أي مكان على وجه الأرض حتى يرتاح من تدخلاته . وكان يطلب من عديله أن يبحـث للابن الصغير على عمل في السعودية . ويتعلل العـديل أن صلاته ليست وثيقة بأصحاب الأعمال . ثم وجد الابن ضالته في العمل في السعودية لدى مقاول غنـى واسـع الثـراء . وتحول الأب من الشكوى في تدخلات الابن المستمرة إلـى

الشكوى من عدم سؤال الابن عن والديه وهو فـي الغربـة وانصراف زوجته المقيمة في القاهرة عن الاتصـال بهـم . والابن لا يزال يتندر بالأب الذي فرش شقته فرشاً رائعاً ولا يبيت فيها إلا يومين في الأسبوع من أجل ري نبات الظـل . ولا يزال يأخذه الحنين إلى شقة قديمة في بناء متهالـك ذات أثاث قديم . فلم إذاً كان يحلم بشقة واسعة يعيش فيها ؟ ! ..

(٤٤)

الحفيدة

لا يعرف الكثيرون عمق اتصالاته ، فقد كان في الرياض يعمق فـي اتصـالاته بالرؤسـاء ومـديري الفـروع فـي المصرف. وكان - في نفس الوقـت - يعمـق اتصـالاته برؤساء المصارف في مصـر . بطاقـة تهنئـة بالعيـد . خطابات تهنئة بالعلو فـي المناصـب . اتصـالات هاتفيـة للمباركة بمولود أو نجاح ابن أو بنت . . وكان محبوباً لديهم فهو يجيد الضحك رغم أنه غضوب . ويصنع المرح رغم أن شكاء . لكنهم كانوا يفسرون غضبه بأنه غيرة علـى الحـق ومن لا يقف بجانب الحق ؟ ! .. وقد اتصلوا به وهـو فـي الرياض يعرضون عليه أن يكون مديراً لفرع مصرف تساهم فيه الدولة يعمل في مجال الاستثمار النقدي . وكان عقد عمله على وشك أن ينتهي فأبرق إليهم بالموافقة . وقد أخفي ذلـك الخبر عن جميع من يعرفهم في الرياض فيما عدا زوجتـه . وعرف أن الجميع – الأهل والأصدقاء – سـوف يفـاجئون حينما يرون أنه عائد من السعودية وتقلد منصباً رفيعـاً فـي

المصرف الجديد وكانوا يشفقون عليه لأنه عائد وقد انتهـى عقده وسبق أن أحيل إلى المعـاش فـي القـاهرة .عـرف المرءوسون طبعه في أول يوم عمل بالمصرف . وعـرفهم أنه متسامح لأقصى درجة إذا كان الخطأ بحسن نية لكن لـن يسمح بالحيدة عن الأمانة والحق . وكالعادة كرهه الـبعض منهم لحدة طبعه ومجادلاته المستمرة وتصرفاته الهوجاء.

ولم يحاول أن يذكر لأحد من أهله كم يتقاضى من راتب . ولو أن الجميع أدركوا أن راتبه كبير . وأنـه مـا رفـض عرض المصرف السابق بالمملكة بأن يعود إلا لأنه يتقاضى راتباً عالياً في المصرف الجديد علاوة على أنه غير متغرب ويعيش في بلده مع أهله وخلانه . وقد عرف أن مجهـوده الفذ في المصرف القديم هو السبب في العرض الجديد عليه . رغم أن رؤساءه في ذلك المصرف استغنوا عنه بحجة بلوغه الستين ولوائح البنك لا تسمح ببقاء موظف بعد تلك السـن . وسمح لنفسه أن يسافر شهراً إلى المصرف القـديم لإنهـاء بعض أعمال لدى ذلك المصرف يطالبه بتقييمها . وعاد على الفور إلى عمله في المصرف الجديد يباشره بـنفس متفتحـة وبهمة ونشاط . وقد شعر أن اعتباره قد رد إليه بعد أن كان يشعر بهـوان للاسـتغناء عـن خدماتـه فـي المصـرف بالرياض .

وحانت له سفرة إلى أمريكا في مهمة للمصرف الجديد . وصاحبته زوجته على حسابه في هذا المشوار لترى أولادها الثلاثة المتغربين . وهناك ألتقي بأولاده الثلاثة وتشاجر معهم

كما هي عادته . فقد جدد الدعوة للابن الكبير وللآخرين أن يعودوا إلى مصر ويعملوا هناك وأنه مستعد أن يترك الشـقة بالقرب من وسط البلد لأصغرهم وأن يسـلم الشـقة التـي اشتراها من نقابة التجاريين لأبنه الثاني . أما الأول فـرغم الحزازات التي بينهما وعدم الوفاق الأبدي فهـو مسـتعد أن يشتري له شقة جديدة . أما هو فسوف ينتقل للعيش في شقته في مدينة نصر . غير أن الأولاد الثلاثة رفضوا الصفقة .

وفوجئ الأب بأنانية الابن الكبير تبرز من جديد . إذ دعي أمه أن تترك أباه في مصر ، وأن تبقى في كنفه في نيويورك وتحتضن ابنته الصغيرة لأنه يخشـى عليهـا مـن حماتـه وخالاتها . فهن يأخذنها إلى الكنيسة فـي صـلاة الأحـد . ويخشى أن تتنصر بدلاً من أن تستمر على ديـن الإسـلام . غير أن الأم رفضت أن تبقي مربية لحفيدتها . أما الأب فقد هاج وماج ووجد أن الأمر مادة خصبة للغضب مـن ابنـه الكبير . فشتمه ولعنه وترك منزله وهو يسـب . وشـد الأم لتصحبه إلى الفندق بقوة . وترك أمريكا دون أن يـودع أبناءه واستمر يلعن ويسب ويشتم الدكتور الفاضـل الأنـاني ذلك الذي يريد أن يجعل أمه مربية لأبنته .

(٤٥)
الأحزان

توقف الحزن أعواماً . ثم عاد من جديد يرفرف بجناحيـه السوداوين على البيت . فقد ماتت منذ زمن أخته المكتئبة في مستشفى الأمراض النفسية ، ونُقلت رفاتها إلى مدافن العائلة في الإمام الشافعي . وبعدها بأعوام ماتت الأم بعـد صـراع طويل مع المرض ، فحزن عليها كثيراً رغم أنها تجـاوزت التسعين بكثير .لكنه كان في سن تمتص الأحزان ، وتتقبـل قضاء الله فلم يدم الحزن طويلاً .

وها هو الحزن يأتيهم من السعودية ، حيث كان يعمل ابن الأخت الكبرى لزوجته طبيب أسنان ، وكانت تعمـل معـه زوجته طبيبة أسنان هي الأخرى ، في المستشفي العسـكري بشرورة . ورزقهما الله بثلاث أطفال ذكور ، حتى أن زوجته قالت إن المرأة تسير في الطريق الذي سـلكته ،إذ رزقـت بأربع ذكور . وتوقفت مسيرة الأطفال الذكور بانقلاب سيارة ابن الأخت في الطريق بين شرورة وجيزان . ولم يتسن لهم رؤيته بعد ذلك ، إذ تم دفنه في موقع الوفاة . وانتقلت زوجته لتعمل في المستشفي العسكري بالطائف حيث يعمل أخوهـا الذي كفلها هناك . وأقيم المأتم في بيت حماته حيث يسـكن أغلب الأهل والأصدقاء ، واضطر أن يضغط على نفسـه ، ويضرب بالخصومة عرض الحائط ، تلك الخصـومة التـي افتعلتها أسرته بسبب عدم موافقة نسيبه الدكتور على كفالـة ابنه أثناء تعلمه في أمريكا ، ولو أنه لم يقابل نسيبه هناك .

كان في ذلك الوقت في أمريكا . إنما قابل عديله المقيم فـي الإسكندرية أبداً ، والذي تلقى التعازي وعاد من جديـد إلـى الإسكندرية ، يهرع إليها كلما غادرها بأسرع مـا يتصـور الإنسان كأنها عشيقة له لا يقدر على فراقهـا أو هجرهـا . بينما بقيت زوجنه - الأخت الكبرى لزوجته- حتـى انتهـى يوم الأربعين . وصارت تتردد على أمها التي قررت البقـاء في بيتها بعد أن تشتت ما بين ابنتها الكبرى وابنة ابنها التـي ربتها صغيرة وتزوجت فاستقلت في بيت بمفردها مع زوجها وأولادها ، وكان الزوج لا يطيق الجدة فأمتعض كثيراً مـن استضافتها ، فآثرت الجدة أن تبقي في بيتهـا ملاذهـا الأول والأخير .

ويوم إقامة المأتم قبل حماته فـي وجنتيهـا وجبهتهـا ، وصافح الأخت الكبرى ، وكان يقاطعها فقد وصل غضبه من أخيها إليها لأنها جزء من ذلك الأخ المتغطـرس المتعـالي الرافض للتعاون . وشد على يد زوجها ، وقبله في وجنتيه . بل جاء معه ابنه الأصغر وكان لا يزال في القـاهرة وهـو الذي تزعم حركة الخصومة منذ البداية دفاعاً عن أخيه الكبير الذي لا يتآلف معه ..

وقد أصيب عديله بكسر في قدميه ، بسبب هشاشة العظام وهي حالة مرضية تصيب الشيوخ ، وهو يقيم في الإسكندرية بصفة دائمة لا يغادرها إلا في الملمات مثل موت زوج أخته أو وفاة هذه الأخت أو وفاة ابنـه الفقيـد الغـالي الوحيـد . واضطرت ابنته الطبيبة البشرية إلى نقله إلى مستشفي فـي

القاهرة ليكون قريباً منها - وكانت بالصدفة المحـض فـي القاهرة إذ تعمل في الكويت - وكانت المستشفى بالقرب من مسكنها في مصر الجديدة . وأشرفت على علاجه حتى امتثل للشفاء ثم سافر إلى الإسكندرية بعد أن التأم الكسر ، غير أنه لم ينتظر طويلاً في الحياة فقد اسلم الروح لبارئها .

بعد انصرام ستة شهور ، رقدت حماته في الفراش رقـدة طويلة ، نُقلت على أثرها إلى المستشفى ، وعوفيت بعد لأي من الأطباء فجاء الغاضب الكبير يسأل عنها في المستشفى ثم في بيتها بعد ذلك . وبالصدفة كان الأخ الكبير قـد أصـابه القلق على أمه ، فغادر أمريكا لرؤيتها ، وقام بكافـة لـوازم المستشفي من مصاريف وعلاج وأدوية . وقابل نسيبه وهـو يزورها وتحادثا حديثاً مقتضباً . لكن الجفوة لا تزال راقـدة في القلوب . وبقيت الأخت الصغرى مع والدتها زهاء سـتة شهور ، واضطرت إلى الذهاب إلى الرياض حيـث يعمـل زوجها لتتمكن من تجديد إقامتها هنـاك . وقامـت الأخـت الكبرى على رعاية أمها ممتعضة حيث صار يقيم معها فـي الإسكندرية ابن ابنتها الكبرى وتضطر أن تذهب إليه لرعايته هو الآخر . وتتسلم الرعاية بدلاً منها الأخـت الوسـطى ، وزوجها الغاضب لا يرضى عن ذلك الوضع ، ويرفض حيناً ويقبل حيناً إذا ذكرته أنها راعت أمه في أواخـر أيامهـا ، فكيف يرفض اليوم أن تراعي أمها ؟ .. ووافق على مضض . كان لا يطيق بعادها كأنه طفل لا يستغني عن أمـه لـذلك كان يناضل في سبيل أن تبقى بجانبه ولو بالغضب . غير أن

الأم ودعت الحياة في آخر أيام رمضان . وقـام بـإبلاغ الأخت الصغرى في الرياض بالوفاة فهرعت إلـى القـاهرة غير أنها لم تشاهد أمها في اللحظات الأخيرة قبل أن يواريها التراب .

ولم تمض شهور حتى كانت أخته المقيمة في طنطـا قـد لحقت بحماته . ثم أخته المقيمة في شبرا أسـلمت الـروح ، وهى تمرح مع حفيدها من ابنها الوحيد . وشعر أن المنيـة تدنو منه وأن عليه الدور . غير أنه تذكر أخته المقيمة فـي وراق الحضر أعلى مطبعتها في عمارتها التي تملكها . فقـد ذكره وجودها أن دوره لم يحن بعد .

وقد أعتبر تلك السنوات الثلاث المنصـرمة مـن أعـوام الحزن العميق في حياته . وهاجمته الأمراض ، وهو لا يزال يعمل في المصرف الاستثماري ، فغطت على الأحزان . لقد شعر في البداية بآلام الركبتين . وزيادة في اليورك أسـيد . وغمامة على العينين . قرر طبيب العيون أنها مياه بيضاء ، وطلب منه استئصالها . وقرر طبيب آخر أنه لا داعي لذلك الآن وعليه أن ينتظر طويلاً حتى " تستوي " . ولم يفكر أن يعتزل واستمر يعمل وهو يعاني آلاماً في أسنانه . يـداويها من حين لآخر وتغطي الآلام على الأحزان ولكن لا تمحوها .

وتحولت حياته إلى نظام لا يتغير . يذهب إلى المصـرف من داره القديمة القابعة بالقرب من وسط المدينـة . ويعمـل بجد ونشاط رغم آلام الركبتين . ثم يعود بسيارته اللادا التي

سلمها إياه المصرف . وفي يومي الجمعة والسبت يبيت مـع زوجته في شقتها التي كتبها باسمها بمدينة نصر لري نبـات الظل . وزوجه ترافقه لا تعترض ولا تفترق عنه إلا لماماً

ولم تشعر الزوجة أن موجات الغضب التي تعتريـه قـد توقفت عن التدفق في قلبه أو صدره أو تصرفاته الهوجاء قد هدأت . إنما استمرت منتعشة رغم كل الأحزان .

(٤٦)

الاستقالة

دائما حياته مشحونة بالتوترات . لم تهدأ أبداً يومـاً مـن الأيام . ظن وهو رئيس فرع للمصـرف الاسـتثماري أنـه سوف يهنأ براحة طويلة . فقد ظل مرءوساً دهـراً طـويلاً يحاول فيه أن يقنع الرؤساء بالعدول عن مخالفاتهم ولكـنهم ينحرفون فيثور ويغضب حتى يعودوا إلى طريـق الحـق . وحتى عندما بلغ مرتبة عضو معـين فـي مجلـس الإدارة بالمصرف المصري ، لم يهنأ بالراحة أيضـاً . ظـل فـي صراع مع الرؤساء من أجل الحق . وحتى يأخذوا برأيه في مسائل مختلفة . أما في هذا المصرف الاستثماري فقد زادت المسئولية واعتبر نفسه أنه قد عـين حفيظـاً علـى أمـوال أصحاب المصرف ويجب أن يكون التصـرف فـي أمـوال المصرف بالحكمة ولا يجوز أن يقرض صاحب عمل يتنصل من قرضه بعد ذلك . إن التصرف فـي أمـوال المصـرف للعملاء في صورة قروض يجعله يحمل عبء حمايـة هـذا المال من الاختلاس أو التبديد . لذلك كان يقف حجر عثـرة

إزاء مقترض يطلب قرضاً دون ضمانات كافية معتمداً على نفوذه عند المسئولين . ولم يكن يهدأ حتى يراجع دراسة جدوى المشروعات المختلفة ووفاء الضمانات بالقروض المطلوبة . ولم يكن يترك الأمر للمسئولين عن تقدير المشروعات والضمانات إنما كان يتدخل في هذه التقديرات ويراجعها . وبدأ العملاء يضغطون على رئيس مجلس الإدارة ليحجم نشاط هذا الرجل . غير أن الرئيس كان فرحاً به لأنه يحافظ على أموال المصرف ويعرف أنه يعمل لمصلحته فلم يستبعده .

ولما أحيل رئيس مجلس الإدارة إلى المعاش ، وحل بدلاً منه رئيس جديد ، كان معروفاً لديه ويعده من المشاغبين النشيطين . بدأ الرئيس الجديد يتحرش به وينتقد آراءه ويسفهها . ورفض منطق الرئيس السابق في أسس الإقراض في بعض المشروعات . وبدل في الأسس والتسهيلات ، فما كان منه - مدير الفرع - إلا أن قدم استقالته إليه . غير أن الرئيس الجديد أمسك ورقة الاستقالة ومزقها وهو يقول : نحن لا نستغني عنك . عاد في ذلك اليوم فرحاً لأن الرئيس الجديد أنصاع لرأيه ، بل أرجأ النظر في قرض كان يعارضه . واستغربت زوجته أن تراه فرحاً ، فهو دائماً كظيم ، ودعت له أن يزيد فرحه إلى فرح دائم وسرور مقيم حتى تهنأ في أواخر أيامها في الدنيا . وما كاد يمضي شهر على تقديم الاستقالة ، حتى صدر قرار من رئيس مجلس الإدارة بإعفائه من العمل نهائياً ، أو بالأحرى إقالته من

وظيفته في المصرف الاستثماري الأجنبي . فزع من المقلب الذي شربه حتى الثمالة . غير أنه تمالك نفسه وأفرغ مكتبـه من أوراقه ، وغادر الفرع عائداً إلى بيته بسيارة أجرة . كان المصرف قد خصص له من قبل سيارة لادا جديـدة ، لـذلك صرف النظر عن شراء واحدة يملكها ، بل كان لديه سـيارة فيات صغيرة باعها على أمل أن يشتري تلك السـيارة مـن المصرف . ولما طلب سيارة لتقله إلى داره ، تعلل السـائق أنها تحتاج إلى إصلاح ، وعرف أن المصرف يـرفض أن يستعملها في اليوم الأخير له به .

عاد في ذلك اليوم حزيناً . ولما عرفت زوجته بالخبر . لم يكن هناك وقت للشماتة فيه إنما طفقت تعزيه في مصـابه . وتحاول أن تكون برداً وسلاماً عليه . وقالت له :

- لا تحزن . لقد عملت بعد المعاش ثماني سـنوات ولا حاجة لك للوظيفة الآن . ويكفي ما فيك من أمراض تفـرغ لعلاجها .

غير أنه يقول :

- أحس كأنه صفعني .. طعنني . لقد قدمت له اسـتقالتي منذ شهر غير أنه رفضها . وها هو يقيلنـي مـن منصـبي فجأة .

تقول المرأة :

- هذه طريقة يتبعها معظم الرؤساء . يرفضون أن يقـدم الموظف استقالته ويفضلون أن يكـون القـرار إقالـة مـن جانبهم.

شعرت بأنه استسلم للاكتئاب حينما رفض أن يحلق شعر ذقنه الغزير . وتذكرت أخته التي كانت تعاني من الاكتئاب . وكان مصيرها مستشفى العباسية ، ثم انتقالها إلى رحمـة الله . وحمدت الله على أن أولادها كبروا ونجحوا فـي حيـاتهم بينما فشل أبناء هذه الأخت فيما عدا واحـد مـنهم . وكـان مصير الفاشلين حرفاً غير شريفة أو مهينة . بيد أنه أسـترد نفسه بعد أيام حينما أتصل به أحد مرءوسيه السابقين يطلـب استشارته في أمر معين بناء علـى طلـب رئـيس مجلـس الإدارة . رفض أن يبدي رأيه بالهاتف وطلب من المرؤوس أن يبلغ الرئيس أنه لن ينظر الأمر إلا إذا أرسل له المصرف سيارة خاصة تقله ومبلغاً معيناً من المال نظير إبداء الـرأي في الموضوع .

ونظر إلى زوجته وهى تراقب مكالمته الهاتفية . وقال لها بغرور : لا يمكـنهم البـت فـي الأمـور الخطيـرة دون استشارتي.

(٤٧)

التسويف

لما جاء العديل وحده إلى القاهرة وجد أن الغاضب أبـداً يعيش مرحلة من حياته نادرة ، مرحلة اكتئاب بالغة الخطورة ، فأراد أن ينتشله منها ، فدعاه وزوجته أن يذهبا معه لمقابلة مقاول يبني فيللا لأبنته في طريق الشاطئ الشمالي عند الكليو ٩١ ، ويناقشاه فيما تم بناؤه ومتى ينتهي من البناء ، ولاقـت الفكرة هوى في نفس الزوجين فمنها سوف ينطلقان بعيداً عن جو البيت الكئيب ، ومن جهة أخرى يمارس الغاضب أبـداً هوايته في الغضب . وركبوا سيارة أجرة في اليـوم التـالي لوصولهم إلى الإسكندرية ، لتحملهم إلى موقـف سـيارات الأجرة بالشاطئ الشمالي . وقفت سيارة الأجرة في الميـدان الواسع المزدحم بالسيارات من كافة الأنواع . ونزل الزوجان والعديل - زوج أخت المرأة الصغرى - وطفقوا يبحثـون عن المشروع الذي يقودهم إلى الكيلو ٩١ . هكذا يسمي اسم الحافلة بالنفر في الإسكندرية . والتقطت المنـادي الزائـرين ليضعهم في السيارة المناسبة . ولم يكن عدد الأفراد بها قـد أكتمل . ولم يظهر على الأفراد في السـيارة أو الشـارع أو الميدان أنهم مصطافون لأن أيديهم كانت خالية من الحقائب . كان الميدان خلية نحل . يبدأ طنين وزعيق وأصوات لا تهدأ من الساعة السادسة صباحاً . مناديو السيارات لا يكفون عن المناداة للساحل الشمالي ومرسى مطـروح ومصـر . وإذا اكتمل العدد بالسيارة تنطلق على الفور . . ينطلق المشـروع

، هكذا تسمي الحافلة في الإسكندرية بينما تسمى في مصـر باسم آخر أجنبي " سرفيس " .

برز رجل أسمر اللون . شاربه كثيف ولحيته قـد نبتـت بعشوائية . بدانته واضحة كأنه خروف يعرف كيف يعلـف نفسه جيداً . وامتدت يده تسأل عوناً من سـيدة فـي مقدمـة السيارة بجانبها رجل يدخن سيجارته . ثم امتدت يـده إلـى الزوجة يطالبها بالإحسان إليه بصدقة . لم تتردد الزوجة في أن تعطيه ، وهمت أن تفتش في حقيبة يدها لعلها تجد نقـوداً فضية . كان الشحاذ البدين لا يزال واقفاً ينتظر وقد استخرج سيجارة من جيبه . وطلب من رجـل سـيجارته ليشـعلها . ورأت الزوجة ذلك المشهد فتعكر مزاجها . شحاذ ويـدخن . إذا كان في إمكانه أن يحرق نقوده في الهواء فلماذا يتسول ؟ .. تراجعت يدها عن التفتيش في حقيبتها . وتوجهـت إلـى المتسول وهى تقول : آسفة لم أجد " فكة ". وكان المتسول قد أشعل سيجارته أطلق دخاناً من فمه بتلذذ فمضى غير عـابئ برفضها .

التفتت الزوجة إلى زوجها وقالت :

- كنت سوف أعطيه لكن صدمني أنه يدخن ويتسول .

قال الزوج بوضوح :

- أمثال هذا الرجل لا تجوز عليهم الصدقة .

وغاب البدين المتسول في الزحام . بينما تنطلق السـيارة وقد استكملت أعدادها فـي طريـق مرسـى مطـروح إسكندرية . ورأوا الطريق الصحراوي قد تحول . أعتمر

بالقرى السياحية . قري يصطاف فيها الناس ويتمتعـون فيها بالبحر الأزرق الجميل . كانت صـفحة البحـر ذات اللون السماوي الفاتح أو الغامق تظهر من حين لآخـر . بعد أن تتجاوز السيارة عمار قرية من القرى . والطريق ممتد كأنه لن ينتهي . والزوج يجلـس بجانـب زوجتـه يثرثران . والعديل جالس في الخلف يتأمل الطريق . كان مشغولاً بمهمته الجديدة . ماذا يحدث لو لم يجد المقاول ؟ .. لقد وعدني أن يكون هناك في الفيللا يضـع اللمسـات الأخيرة فيها . طلبت منه أن ينتهي من العمل حتى أبشـر الأهل بالانتهاء . وطلبت أن يبلغني بوجوده بيوم سـابق على السفر حتى أطمئن إنني سألقاه ، لكنه لم يهاتفني على الإطلاق . لم هذا التسويف ؟ .. يدعي المـرض ولعلـه مريض ، لكن ألا يوجد لهذا المقاول مساعدون . ليس من المعقول أنه يعمل وحده . هل سيكون هناك فـي الموقـع يعمل بجد واجتهاد أم تراه ينكث بوعده ؟ .. كـل هـذه الشهور - يا ربي - ولم ينته من العمل ، ولا يضايقه أن يقبض المال دون إنجاز معقول .

يستيقظ الركاب من أفكارهم على " فرملة " . وتراجع إلى الخلف . كان السائق قد تعدى شرطياً طلب منه الوقـوف . تعداه بقليل . ورجع إليه ليعتذر . لكـن الشـرطي رفـض اعتذاره وسحب منه رخصة القيادة .وتوقفت السيارة لمـدة دقائق . خرج السائق بذلة منها واتجه إلى قائـد الشـرطة . واستلم منه إيصال بسحب الرخصة . والناس يثرثرون : لقد

عاد إليه . ماذا حدث ؟ .. هل من الضـروري أن يسـحب الرخصة ؟ .. وآخر يقول : إنه واجب عليهم أن تكون فـي جعبتهم حصيلة مالية معينة يومياً . وآخر يشرح : كان على السائق أن يبطئ لأنه وجد الشرطي يقـوم بـالتفتيش علـى السيارات الأخرى لكنه تجاوزه غير عابئ به .

انطلق السائق والناس تسأله بانزعاج : كم ستكون الغرامة ؟" .. قال : خمسون جنيهاً . ولم يكن قد طلب الأجرة بعد . فصاح : الأجرة لو سمحتم . وحسبها الزوج سراً ، فوجد أنها تقرب من الخمسين جنيها . كأنما كان يطلبها حتى يطمئن أنه سيتمكن من دفع الغرامة .

عند الكيلو ٩١ وقفت السيارة . ونـزل منهـا الزوجـان والعديل . جاء الزوج مع العديل ليضغطا على المقاول حتى ينتهي من إعداد الفيللا للسـكنى . إنهـا فرصـة لاسـتعادة الغضب بعد أن تحول إلى اكتئاب من أثر إقالته من المصرف . وكأنهم سيكونون عصبة في مواجهة الرجل قد تمنعه مـن الاستمرار في التسويف . وكان الزوج قادراً على المناقشـة والجدل وإصدار الأوامر أكثر من العديل غير الميـال إلـى الصراع . وقال له : أترك الأمر لي فلسوف أؤدبه .

وبعد بحث مضن عن الفيللا وجدوها ، والمسـافة بـين بوابة القرية وفلل القرية بعيدة . وقد مشى الزوج يترنح كأنه طفل يتعلم المشي . وكانت حالة الاكتئاب الناتجة عن إقالتـه من المصرف الاستثماري لا تزال تسيطر علـى عواطفـه فتوتره لكنه يتحامل على نفسه ويمضي . بل كان يشعر أنـه

مصاب في سلسلته الفقرية فكان يمشي ببطء . وجـاء عنـد فيللا من الفال وجلس على سورها . وأختلط المكـان علـى العديل أتقع الفيللا في منطقة الحرف " ذ " أم الحرف " ز " . واكتشف أن الفيللا رقم إحدى عشـرة فـي الحـرف " ذ " مسكونة . ثم اكتشف أن الفيللا في الحرف " ز " هي الفـيللا التي جلس على سورها عديله متعباً مكدوداً .فهلل فرحاً وقال له : أنت مبارك فعلاً كأنك ملهم . وانبسطت أسارير الرجل لهذا المدح . لكن الفيللا كانت خالية من أي حركـة كأنهـا خلية نحل هجرتها الشغالات . نكث إذاً المقاول بوعده بـأن يذهب إلى العمل في يوم الأحد الماضي ليلاقيـه فـي يـوم الأربعاء . ولسوف تكون الفيللا معدة للسكن بالفعـل كمـا أدعى .

بحث العديل - زوج الأخت الصغيرة - عن هاتف ليطلب المقاول في القاهرة . ومشى المسافة بين البوابة والفال مـرة أخرى حيث وجد عند بوابة القرية هاتفاً . بحث عـن رقـم هاتف المقاول في" أجندة " صغيرة في حافظة نقوده ليطلبـه في القاهرة . وجد المقاول في بيته . استنكر أن يتعهد بالقدوم إلى القرية للعمل ولا يحضر . لكن المقاول قرر أنه مريض وأنه أرسل رجلاً يحمل معدات الحمامات والمطـابخ ليقـوم بتركيبها . وسوف يشرف على إتمام البياض وتبليط السـلم إلى سطح الفيللا .

سخط سخطاً كبيراً على ذلك المقاول المسوف . واستنكر على نفسه أن يأتي ، وهو يدرك أن الرجل سوف يسوف .

عاد ليجلس بين الزوجين في مطعم القرية الوحيد ، رغـم أنه لا يتمكن من تسميتها قرية ، فهـي مليئـة بالفلـل ذات الدورين أو الدور الواحد . مبنية بالحجر أو الطوب الأحمـر أو الطوب الأسمنتي . وليس بالطين النيئ أو اللبني مثل مـا هي الحال في القرى بالريف . لكن الآن تغير يا فتى الوضع في الريف ! ...

شاهدوا وهم جلوس روعة الطبيعة وهم يواجهون البحر . بحر في آخر النظر أزرق غامق يتدرج حتى يصل إلى اللون السماوي عند بداية النظر . بجانب البحر بحيرة ترافقه كأنها طفلة يحتضنها . لا تفترق عنه لوناً وجمالاً . المصـيف مليء بالأولاد . النساء جالسات يرقبنهم وليس هناك رجـال إلا القليل . كأنما تركوهم ليباشروا أعمالهم فـي القـاهرة أو المدن الأخرى . لم يكن العدد كبيراً فقد كانـت إرهاصـات الصيف وتباشيره لم تظهر بعد .

رغم خلابة المنظر وروعته كان السقم يدب فـي فـؤاد العديل من تسويف المقاول . تساءل :

- لم يعد ذلك الرجل بالمجيء للانتهاء من الأعمال المتبقية ولا يصدق في وعده .

أجاب المصرفي السابق وهو ينتهز الفرصة للغضب :

- إنهم يريدون التهام أموال الناس بالباطل ولا يقدمون مقابل ذلك عملاً .

قالت الزوجة :

- إنهم يقدمون العمل ببطء شديد كأنهم يستغلون الأموال تماماً قبل تقديم العمل .

ولما مالت الشمس بعد منتصف السماء قرروا العودة بعد أن أكلوا وجبة من السمك المرجان وجـدوا المطعـم عنـد البحيرة الصناعية يقدمها . ورأوا أن يلقوا نظرة أخيرة على الفيللا قبل أن يمضوا عائدين إلى الإسكندرية لعـل منـدوب المقاول قد وصل . وبالفعل وجدوه هنـاك يضـع الأجهـزة المطلوبة للعمل . ووعدهم أن ينتهي من تجهيز الفـيللا فـي ظرف ثلاثة أسابيع . وأنه سوف يبدأ العمـل فـي الحـال . وينتهي من إجراء التشطيبات النهائية .

انصرفوا وقد شعروا ببعض الاطمئنان إلـى أنهـم أدوا عملاً. وأن رحلتهم لم تكن خائبة لدرجة كبيرة .

(٤٨)
السيارة

عادوا إلى الفندق من الرحلة السياحية . وقرر الرجـل أن يرد وليمة العديل وأن يدعو عديله على مأدبة تعدها زوجتـه عند شاطئ شهر العسل بالعجمي . وذلك في صـباح يـوم الخميس . مقابل تلك الوليمة السمكية التي التهموهـا علـى حساب العديل عند شاطئ البحر في الكيلو ٩١ . لم يحـاول العديل أن يعتذر لأنه يعلم أن الرجل قد يغضب . وكان يريد أن يشعره بالسعادة حتى يغرب ليل الاكتئاب عنه .

ولم يكن أمامهم إلا الغد وبعد غد يسافرون عائدين إلـى القاهرة . وقد هدأت نفس المصرفي المستقيل المقال وبـدأت تعاود نشاطها ولم يكن أمامها غير الشكوى . وضغط العديل على نفسه ليستمع إلى الرجل وهو يشكو من أبنائه الأربعـة شكوى مرة . وصبر عليه وهو يكرر الشكوى على أمـل أن يمل الرواية ويتوقف عنها .

لقد خاصمه ابنه الكبير المقيم في أمريكا حينما رفـض أن تكون أمه - زوجته - مربية لأبنته . ومضـى الآن ثـلاث سنوات لم يرفع سماعة الهاتف ليقول لهما كيـف حالكمـا . والابن الثاني المقيم هو الآخر في أمريكـا مضـرب عـن الزواج ، ولا يفكر أن تكون له ذرية ، وتغلغل فيه الطـابع المادي فلم يكتب إليه منذ زمن . والابن الثالـث ، المتطلـع للجنسية الأمريكية دائم الشجار مع زوجته المصرية ، وتريد التطليق منه ، غير أنه يرفض لأنه مفلس ، ولن يتمكن مـن الوفاء بمؤخر صداقها ، وتطلب من حميها أن يأمره بالطلاق ، وأن يرسل الحمو ثمن التذكرة لتعود إلى القاهرة . لأن ابنه لا يملك ثمن التذكرة . والحمو يرفض بإباء لأنـه لا يريـد مشاكل مع ولده الفاشل عملاً وزواجاً . أما الابن الرابع فهو متقوقع في السعودية وزوجته متقوقعة في القاهرة ولا تفكـر في زيارتهما رغم قرب البيت من البيت ولا تتصل بهمـا إلا مرات قليلة ، ونفساهما تهفو إلى الطفلين غير أن المـرأة لا تدرك ذلك وقد تدرك لكنها ترفض تلبية مطلبهما في رؤيـة الحفيدين ، وحينما يأتي من السعودية في إجازة لا يـراه إلا

مرات معدودة ، وحينما تسافر إليه زوجته تذهب سـراً دون أن تحاول أن تخبرهما بذهابها هي وولدها وابنتها الصغيران ، ولما يبادر الأب بالشكوى من تصرفها ، يسأل الابن : هل أطلقها ؟ .. أليس واجباً أن تودهما وأن يوداها ؟ ... أبنـاء جاحدون .. أبناء ناكرون للجميل . أبناء عـاقون . وإذا مـا كرر الشكوى عدة مرات . انتقـل للحـديث عـن علاقتـه بالمصرف الاستثماري الذي فصله دون مبـررات اللهـم إلا حقد الرئيس الجديد عليه وغيرته منه . لكن لـم يسـتطيعوا الاستغناء عن خدماته كليـة ، لا زالـت بصـماته مـؤثرة ومتغلغلة في أعمال المصرف ، ولا يستطيعون البـت فـي أمور إلا بالرجوع إليه . إنه أشبه بالكـاهن الـذي يعـرف طلاسم العبادة ، ولا يجوز إقامتها إلا بوجوده ، إنه الوحيـد الذي يفك الطلاسم ، إذا شاء وعلى العباد الطاعة .

ولم تشأ الزوجة أن تحتفل الاحتفال الموعود على شـاطئ شهر العسل وحدهم فـدعت أختهـا الكبيـرة المقيمـة فـي الإسكندرية . وهى تعيش الآن وحدها في البيت الواسع بعـد أن رحل زوجها رحلة الأبدية . ولو أن هناك حفيديها يؤنسان وحدتها حيث يعيشان معها ويدرسان بالجامعة في الإسكندرية . وابنتها تعمل في الكويت ، وابنتها الثانية تعمل هي وزوجها هناك ، أما ابنتها الثالثة التي كانت لا تفارقها تقيم مع زوجها في السعودية . وكانت تلك الأخت قد فقدت ابنها في حـادث انقلاب سيارته في المملكة العربية السعودية حيث كان يعمل

.. وقد تكون لفتة كريمة منها أن تجمعها معهـم فـي هـذه المأدبة على شاطئ شهر العسل بالعجمي .

وقضوا وقتاً جميلاً تحت أشعة الشمس رغم أنهم يحاولون التواري عنها في ظل الشمسية . والبحر أمامهم تتلاطم فيـه الأمواج . ولا سابحون إلا الأطفال عند طرف البحر القريب من الشاطئ . والنساء يلعبن الورق في ستر يبعـدهم عـن الهواء . والرجال نائمون بلباس البحر أو يشاركونهن اللعب وقد ظهرت عليهم علامات الشمس السوداء على أجسادهم .

وكأن الرجل الغاضب دائماً يقرف من الابتهاج المستمر ، لذلك انتهز فرصة في اليوم التالي بأن سأل عديله أن يطلـب من مدير الفندق أن يمهلهم في مغادرة الفندق حتى السـاعة الثانية بعد الظهر إذ سيركبون سيارة العودة عنـد السـاعة الثالثة . ولا يجدون مكاناً يقضون فيه ثلاث سـاعات غيـر الفندق ووافق العديل غير أنه عاد وهو يقول :

- رفض الرجل مدير الفندق وقال لا بد من إخلاء الحجرة عند الساعة الثانية عشرة .

صرخ الغاضب أبداً وهو يقول :

- أذهب إليه وقل له إننا لن نغادر الحجرة إلا الساعة الثانية بعد الظهر .. وليفعل ما يفعل .

قال العديل محتجاً :

- ولم لا تذهب إليه أنت ؟ ..

وكان الغاضب يجلس في فراشه ، وهو يرتدي ملابسـه ليتوجه لصلاة الظهر في المسجد القريب من الفندق :

- لا تكلمني بهذه اللهجة .. لا تكلمني بهذه اللهجة ..

استغرب العديل وسأل :

- أي لهجة كلمتك بها ؟ ..

صرخ وهو يخرج عن شعوره ويغرق في غضب عميـق لا يعرف من أين أجتاحه :

- أرجوك .. أرجوك ..

استبد الغضب بالعديل ، فهو يعامله كأنه مرءوس عنده أو ولد من أولاده ، وقد دخل في عامه الستين . فأمتعض وغادر الحجرة إلى حجرته . ولم يلمس لسانه لسان الغاضب بكلمة . وظل في السيارة التي تقلهـم إلـى القـاهرة لا يـتكلم ولا يخاطبه .

ولما غادر السيارة ركبوا سيارة أجرة معاً . أوصلهما إلى بيتهما في مدينة نصر . ومضى إلى شقته في نفس المدينـة دون أن يلقي عليهما السلام . وشعروا من جديد أن خصومة جديدة تولدت بينهم مثل تلك الخصومة التـي صـنعها يـوم رفض الخال كفالة ابنهما لدي الجامعة في أمريكا . واستمرت سنوات طويلة دون أن يعود الشمل إلا بعد وفاة الأم الكبيرة .

ولم يتصل العديل حتى غادر القاهرة عائداً إلى الرياض . والغاضب يشكو لزوجه أخلاق ذلك الرجل الهادئ المتسامح الذي كان يحسده على هدوئه وتسـامحه . والزوجـة تـتهم زوجها دون إعلان أنه المخطئ بالفعل وأنه غضب بلا سبب كأنما أوحشه الغضب فغضب من أجل الغضـب . لا يـزال

يتخذ من التصرفات الهوجاء طريقاً له كأنما يسعده أن يكون أهوج .

حينما جاءت زوجة العديل - أخت زوجة الغاضب - من الرياض . قام الغاضب وزوجه بزيارتها للمباركة لها بسلامة الوصول . وقال لها وهو يبدو مرحاً ولو أنه يخفي غضباً :

- سوف اشتري سيارة جديدة .. وسوف آخذك أنت وأختك في فسحة بها . ولكن لن اسمح أبداً أن يركبها زوجك .. أبداً .

قالت الأخت ساخرة وهي تكتم غضبها :

- رحم الله أيام كان زوجي يأخذك من أقصي الرياض إلى أدناها ثلاث مرات في الأسبوع .. ويلف بك زهاء أربع أو خمس ساعات حتى تطلب بنفسك العودة إلى بيتك . وعلى العموم فإن لزوجي سيارته في القاهرة ولن يحتاج لركوب سيارتك . أهنأ بسيارتك الجديدة وحدك .

وافتعل الضحك وافتعلتاه أيضاً .

الرياض في ٢١ / ٢ / ١٩٩٨